الفصل الأول:

تفسير المنار؛ القضايا، والمنهج، التأثُّر والتأثير

يقتضي مني المقام قبل التعرض للاتجاه المقاصدي في المنار، أن أسلط بعض الضوء على هذا التفسير باقتضاب شديد، وأبرز الاهتمامات والقضايا التي شغلت بال صاحبه، وكذا بيان منهجه فيه، والمراجع الفكرية التي يصدر عنها، هذا دون إغفال الأثر الذي أحدثه هذا التفسير في الدراسات القرآنية خاصة، والإسلامية عامة، مع التركيز على ما يخدم فكرة البحث؛ أي في الجانب المقاصدي من خلال عرض جملة من الأهداف، والمقاصد سعى المؤلف إلى تحقيقها.

أولاً: التعريف بـ"تفسير المنار"

هو واحد من أهم كتب التفسير في العصر الحديث، ينسب للشيخ رشيد رضا بوصف دوره فيه تأليفاً وفكراً ومنهجاً، ولو أن الأجزاء الخمسة الأولى ينقل فيها ما يسمعه من أستاذه،[1] غير أن تصرفه فيها، وإضافاته وتعقيباته على كلام أستاذه،[2] كل ذلك يقوي ارتباط هذا التفسير به أكثر من غيره.

وقد اختير المنار عنواناً لهذا التفسير؛ "لأن صاحب المنار له فضل كبير في

---

(١) المشهور أن تفسير الأستاذ الإمام انتهى عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ١٢٦﴾ [النساء: ١٢٦] لكن بعضهم عدّ هذه النسبة مبالغا فيها باعتماد بعض القرائن، كما تنشره المجلة التي نعت وفاة عبده في المجلد الثامن، ومع ذلك بقيت مستمرة في عزو التفسير إليه، غير أن هذا غير كاف في إثبات وقف تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وهو ما نشر في الجزء الذي قبله؛ لأنَّ من عادة السيد أن لا ينشر كل ما سمع دفعة واحدة، وممن أيد هذه الدعوى المرحوم محب الدين الخطيب. انظر:

- السامرائي، حسيب. **رشيد رضا المفسر**، بغداد: دار الرسالة للطباعة، ١٩٧٦م، ص٤٣٩ - ٤٤١.

(٢) وقد صرح في مقدمته أن ليس كل ما ورد فيه منقولاً عن الأستاذ، بل من تفسيره هو، ومن إنشائه هو، لكنه يعجبه حين يعرض عليه. انظر:

- رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص١٥.

إخراجه،"[1] وقد ربطه بمعاني الفهم والبيان والهداية إلى ما فيه سعادة الدارين.[2]

وقد حاول هذا التفسير إعادة بناء الأمة على أسس ومنهج القرآن الكريم، حتى يتحقق لها الشهود الحضاري، وتستحق وصف ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. والمنار من ضمن التفاسير التي لم يكتب لها أن تكتمل،[3] ورغم ذلك فقد تضمن تصوراً عاماً لمباحث القرآن، من خلال تفسير موضوعي للآيات.

ثانياً: اهتمامات "تفسير المنار" وأهدافه

سعى المنار إلى تحقيق جملة من الأهداف تستمد مشروعيتها ومصداقيتها من مقاصد القرآن، وأهداف البعثة النبوية، وتتنوع بتنوع هموم الأمة، وسأتناول أهمها في نقط محددة وبتركيز:

١- بيان خصائص الإسلام:

منها:

أ- الوسطية والتوازن والاعتدال، بين أمور الدين والدنيا، أو بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة، أو بين مطالب الروح ومطالب الجسد،[4] فقد أعطى الإنسان جميع حقوقه، وطالبه بما يكون بها كاملاً في إنسانيته،[5] وللحكم الشرعي

---

(١) آدمز، تشارلز. **الإسلام والتجديد في مصر**، ترجمة: عباس محمود العقاد، تقديم: مصطفى عبد الرازق، القاهرة: دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٥م، ص١٨٩.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص١٧.

(٣) حيث توفي صاحبه منتهياً عند قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١]، وطبع في اثني عشر جزءاً، آخر آية فيه ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: ٥٢]، فلما جاء الأستاذ بهجة البيطار أتم تفسير سورة يوسف، وطبعها بتمامها في كتاب مستقل عازياً الجميع إلى السيد رشيد رضا. انظر:

- الذهبي، محمد حسين. **التفسير والمفسرون**، القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٥م، ج٢، ص٥٠٧.

(٤) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٦، ص٢٥٩.

(٥) المرجع السابق، ج٨، ص٣٨٦ وج١١، ص٢١٤.

وجهان؛ قانوني وأخلاقي، ومتى تلازما تحققت الوسطية، ومتى افترقا تولدت الطرفية،[١] وهي الحفاظ على العمل بهدي الرسول ﷺ والاستقامة على سنته."[٢]

والإسلام كما يقدمه المنار هو الدين الوسط الجامع بين مصالح الروح والجسد، للسيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة، فالمسلمون خيارٌ عدولٌ؛ لأنهم ليسوا من أرباب الغلو في الدين، المفرطين، ولا من أرباب التعطيل المفرطين، فهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال.[٣]

ب- الكمال: وهو مما انفرد به الإسلام، فقد أكمل الله تعالى به دينه من بسط أصول العقائد، وإتمام مكارم الأخلاق وعقائل الفضائل والآداب.[٤] والهدف من هذا الكمال تحقيق الكمال الإنساني أيضاً، "فما هدينا إليه -يقول رضا- هو الكمال الإنساني الذي ليس بعده كمال؛ لأن صاحبه يعطي كل ذي حق حقه."[٥]

ت- المرونة: ومن مظاهرها تفويض الله تعالى للمسلمين أمور دنياهم الفردية والمشتركة، الخاصة والعامة، بشرط ألا تجني دنياهم على دينهم وهدي شريعتهم، فجعل الأصل في الأشياء الإباحة، وجعل أمور سياسة الأمة وحكومتها شورى، وغيرها من المظاهر.[٦]

ث- العالمية والشمولية: وترتبطان بتحقيق العبودية لله، وهي لا تتحقق من غير أن تستوعب كل من يخضع لها اضطراراً؛ ليتمثلها اختياراً، كما لا تتحقق من غير أن

---

(١) عبد الرحمن، طه. "مشروع تجديد علمي لمبحث مقاصد الشريعة"، **مجلة المسلم المعاصر**، العدد (١٠٣)، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م). ص٤١.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٤، ص٥.

(٣) المرجع السابق، ج٢، ص٤.

وفيه مظاهر متعددة للوسطية في الإسلام، سواء في القضايا والأحكام التي تعرض لها بالمناقشة والتعليل، في إطار كلي، أو جزئي تفصيلي.

(٤) المرجع السابق، ج٧، ص٦١٨.

(٥) المرجع السابق، ج٤، ص٥.

(٦) المرجع السابق، ج١١، ص٢١٧. وقارن بالمجلة: مج١٨، ج٥، ص ٣٢١.

يشمل الدين كل شيء في الحياة، وقد بين هذا التفسير حكمة التشريع على وجه يسوق إلى التجديد لفقه الإسلام، واستنباط الأحكام الأكثر انسجاماً مع روح العصر، وإثبات أن الإسلام دين عالمي صالح لجميع الشعوب وملابسات الحضارة.[١]

٢- وضع المسلمين أمام كتاب ربهم:

أفلح المنار في الربط بين النص والواقع بصورة تشعر المسلم أنه يعيش في أجواء النص القرآني، وأن النص قريب من همومه وإحساسه، وقضاياه ووجدانه. وفي هذا الإطار تدعو إلى فهم القرآن بما يعيد على أسماع المسلم صلة الإسلام بالحياة، لرده إلى دينه رداً حسناً.[٢] ولم يترك سبيلاً من سبل الهداية أرشد إليها القرآن إلا وبيّنها، واستنبط ما ينفع المجتمع؛ لأن كل آية تحمل فائدة للمجتمع، تعالج أمراضه، وتزكّي روح الخير والإيجابية في الإنسانية المعطاءة.[٣] ففيه من التجديد المنهجي ما لا يخفى على من له اطلاع على التفاسير الأخرى، قديماً وحديثاً، مهما ورد حوله من ملحوظات.[٤]

٣- توعية الأمة بحقوقها وواجباتها:

مما يقتضيه إحياء العمل بالقرآن معرفة الحقوق والواجبات على ضوء أحكامه وتعاليمه ووصاياه. فإلى جانب تبصير الأمة بأمور دينها نجد أيضاً الاهتمام بتوعيتها بأمور دنياها خصوصاً منها علاقتها بحكامها، وذلك من خلال التفصيل في الحقوق والواجبات للراعي والرعية،[٥] والتنديد بسوء فهم الحكام لمعنى

---

(١) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٢٥ وص١٧٩ وج، ٢، ص٨١ وج٤، ص٢٨٠ وج٨، ص٣٩.

(٢) ينظر هجومه على من سموا أنفسهم المتنورين، فأحلوا الروابط الوطنية محل الروابط الملية في:
- رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٠ - ٤٤١.

(٣) صالح، عبد القادر محمد. **التفسير والمفسرون في العصر الحديث**، بيروت: دار المعرفة، ط١، ٢٠٠٣م.

(٤) أبرز المآخذ عليه في هذا البحث.

(٥) ويُعدُّ الأفغاني أول من أثار هذه القضايا الحقوقية، وتبعه محمد عبده. انظر:
- مجموعة مؤلفين. **تراث الإنسانية**، القاهرة: دار الرشاد الحديثة، (د. ت.)، ج٢، ص٨٢٩.
- رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام**، مرجع سابق، ج١، ص١١ - ١٢.

الحكم،[1] والهدف هو بيان أمراض الأمة الإسلامية الدينية، والسياسية، والاقتصادية والاجتماعية، وبيان أسبابها ووصف العلاج الناجح لها اعتماداً على تعاليم الإسلام الذي كان عليه السلف الصالح.

٤- تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريق سلف الأمة:

ولا يتحقق هذا الهدف إلا بتجاوز كل عصور الانحطاط والجمود التي ساد فيها الفكر الخرافي وانتشرت البدع، من قبيل التوسل بالأضرحة والأولياء، فتحرير فكر الأمة من التقليد أحد الأمرين العظيمين الذين ارتفع بهما صوت عبده،[2] وعده رضا من أسباب تخلف الأمة وانقسامها. فهو يكرس البدع، ويقود إلى التعصب.

٥- تحقيق وحدة الأمة:

سعى أقطاب المدرسة كل من موقعه، كما مر بنا في أنشطتهم، إلى تحقيق الوحدة الإسلامية، ونجد انعكاس هذا الاهتمام على صفحات المنار في كل تفسير، أو تعليق على الآيات الداعية إلى الوحدة والاعتصام، والناهية عن الفرقة والاختصام، سواء في آل عمران، أو الأنفال،[3] وغيرهما، والوقوف طويلاً عند أسباب الفرقة وسبل علاجها. ولتحقيق هدف الوحدة، لا بد من تحقيق هدف ثانوي آخر هو:

٦- بعث التراث وإعادة قراءته:

لا يتحقق بعث الأمة لتحقيق الشهود الحضاري المنشود إلا ببعث تراثها للإفادة منه، والالتفاف حول مكامن القوة فيه، وما أكثرها وأعظمها! والإعراض عما علق به من شوائب ليست من معدنه في شيء.[4] فإذا كانت نهضة الشعوب

(١) مجموعة مؤلفين، **تراث الإنسانية**، مرجع سابق، ج٤، ص٧٦٦ - ٧٦٧.

(٢) والثاني إصلاح اللغة العربية كما سيأتي. انظر:

- رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام**، مرجع سابق، ج١، ص١١ - ١٢.

(٣) **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠٦ فما بعدها وج١٠، ص١٩ فما بعدها.

(٤) يدركها كل ذي عقل سليم وفطرة سوية ممن فقه الإسلام من نصوصه.

الأخرى -كما يقول شبلي النعماني[1]- هي أن تتقدم إلى الأمام، فإن نهضتنا هي أن تعود إلى الوراء حتى ننضم إلى عصر النبوة.

وكل محاولة لتجاوز هذا التراث، مهما كانت الذرائع والدواعي، يعد سعياً لمحو ذاكرة الأمة واستئصال جذورها، وهذا ينطبق على الأمم جميعها.

وقد دعا الشيخ رشيد رضا شباب الأمة وعلماءها إلى الاطلاع على ذخائر حضارتهم، والتمييز في التراث الفقهي بالخصوص بين القطعي والظني، وبين ما مستنده القياس أو الاستنباط، من القواعد العامة أو الخاصة؛[2] لذا نجد لأعلام.[3] الفكر والثقافة، في شتى أنواع المعرفة، حضوراً متميزاً في المنار، من حيث توظيف بلورة فكر نهضوي قادر على الصمود، وتمثل الواقع، واقع تتلاقح فيه الأصالة والمعاصرة.

٧- التجديد:

تحقق في ثنايا المشروع السابق هدف آخر، وهو التجديد، سواء في أمور الدين، أو أمور الدنيا، ففي المنار دعوة إلى تبسيط مفاهيم الدين، والرجوع به إلى سهولته وهدايته، كما كان في الصدر الأول؛ أي كما فهمه ومارسه السلف الصالح، وانتقد في التفسير فقهاء المذاهب في تعقيد المسائل بكثرة الشروط والفروع، ونادى بضرورة تأليف جمعية تضم علماء المذاهب، تضع للأمة كتباً في العبادات والمعاملات، تؤخذ من نصوص الكتاب والسنة، ومن اجتهاد كبار العلماء، يراعى فيها اليسر ورفع الحرج، ودرء المفاسد وجلب المصالح والعُرف وغيرها من

---

(١) خان، وحيد الدين. **تجديد علوم الدين**، القاهرة: دار الصحوة، ط١، ١٩٨٦م، ص٩١ - ٩٢.

(٢) ابن قدامة المقدسي، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد. **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤٠٥هـ، ج١، ص٢٩.

وقد أعجب فيه بصاحبه ابن قدامة، لعدم تعصبه لمذهبه الحنبلي، والشيخ رشيد يمقت التعصب المذهبي كما سبقت الإشارة إليه.

(٣) كالغزالي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن خلدون وغيرهم.

القواعد الشرعية الكبرىٰ، خصوصاً المقاصدية منها.

وهذا يسهم في تحقيق هدف آخر أعم، لا يخص الأمة الإسلامية وحدها، وهو:

٨- ربط الأمة بالتاريخ:

إن للتاريخ أهمية قصوىٰ في رقي الأمم والشعوب، واستئناف مسيرة البناء والعمران، فهو سجل تجارب الأمم في السلم والحرب، والسراء والضراء، والنجاح والإخفاق، والنهوض والسقوط. ومن شأن قراءته قراءة واعية ومتدبرة ومتأنية، والاعتبار بأحداثه ووقائعه، أن تبصر بالمزالق والمطبات، وتجنب المواقف غير محسوبة العواقب.

وقد أخذ علم التاريخ حيزاً كبيراً في فكر السيد رشيد، فهو يعدّه المرشد الأكبر للأمم العزيزة إلىٰ ما هي فيه من سعة العمران وعزة السلطان.[١] وقد وقف عند أصول علم الاجتماع والعمران في القرآن، والعلم بسنن الله في شؤون البشر العامة، ونبَّه العلماء إلىٰ ما تنطوي عليه آياتها من دروس وعبر.[٢]

وتاريخ هذه الأمة كتبته أقلام العلماء ومداد الشهداء وسير الصلحاء، فهو مصدر العزة والفخار للمسلمين، ومظنّة القدوة والتأسي لمن يريد إحياء الأمجاد حقاً.

٩- إصلاح اللغة العربية:

كانت اللغة العربية خلال هذه الفترة فريسة العجمة، فجاهدت المدرسة في إنقاذها وإحيائها، وعبأت لهذا الغرض كل الوسائل كالصحافة، والتدريس، والنشر والتأليف.[٣] ولتفسير المنار جهد جبار في أداء هذا الواجب من خلال لغته

---

(١) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٣١١.

(٢) انظر "أقسام السنن" في الصفحة (٢٧١) من هذا الكتاب.

(٣) أسست لهذا الغرض "جمعية إحياء الكتب العربية القديمة"، ونشرت نماذج من البلاغة السلفية مثل: نهج البلاغة، ومقامات بديع الزمان، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة للجرجاني... ونبه المنار على أهمية دراستها. انظر:

- رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص١٨٢.

الرصينة، ورقّة لفظه ورشاقته الفنية تصويراً وتشخيصاً، واستكشافه روعة البيان القرآني وإعجازه، وقد أكد "أن لا بقاء للإسلام إلا بفهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً، ولا بقاء لفهمه إلابحياة اللغة العربية..."[١]

١٠- مقاومة تحديات العصر:

لقد فطنت المنار إلى أن كل الأنشطة الممهدة للاستعمار، والمصاحبة له، مهما حملت من شعارات فإنها غير بريئة؛ لأن الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور رجال الغرب، فالاستعمار يعمل على إضعاف الروح الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية في البلاد الإسلامية؛ ليتحكم فيها.[٢]

وقد تصدَّى لكل تشويه أو سوء فهم له، عن قصد أو عن غير قصد، وله مواقف مشرّفة ضد دعاة التغريب[٣]الذين يدعون إلى تبني القوانين الأوروبية، والتشويش بها على عقيدة الأمة.[٤]

ثالثاً: منهج "تفسير المنار"

لا يتعلق الأمر هنا بالمنهج الفقهي الصرف، لأتحدث مثلاً عن مصادر الحكم الشرعي وترتيبها بحسب طريقة اعتمادها، بل بما هو أعم؛ أي المنهج الفكري ومعالمه التي تميزه في التفسير والفهم للخطاب القرآني، وهكذا يمكن أن نذكر من

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٨٢.

(٢) مجموعة مؤلفين، **تراث الإنسانية**، مرجع سابق، ج١، ص٨٣٢.

(٣) أمثال: سلامة موسى، ومحمود عزمي، وطه حسين، وعلي عبد الرازق وغيرهم، وقد ألّف علي عبد الرازق كتابا دعا فيه إلى إزالة الخلافة، ولذلك ناله من السيد أكثر مما نال غيره.

(٤) وضمانا لفعالية هذه المقاومة واستمرارها، اهتمت المدرسة بتكوين الدعاة وتأهيلهم للدفاع عن الإسلام، فقد أسس رضا كلية الدعوة والإرشاد، وجمعية الدعوة والإرشاد، وصادف تأسيسها دعوة اليابان لعقد مؤتمر تناقش فيه جميع الأديان، واختيار الدين الأمثل ليكون دينها الرسمي، كان ذلك سنة ١٩٠٦م، وقد ندب الشيخ كل الغيورين في بلاد الإسلام لدعم الفكرة، بعد أن استحسنوها، واشترط شروطاً لكفاءة الخريجين. انظر:

- رضا، **مجلة المنار**، مرجع سابق، مج ١٤، ص٨٠١ - ٨٢١.

معالم هذا المنهج:

١ - الاستحضار الدائم للمقاصد القرآنية:

يستحضر الإمامان في تعاملهما مع القرآن مقاصده العظمى من موضوع تنزيله، وفائدة ترتيله، وحكمة تدبره من علم ونور، وهدى ورحمة وموعظة، وعبرة وخشوع وخشية، وسنن في العالم مطردة، فتلك غاية إنذاره وتبشيره، ويلزمها عقلا وفطرة تقوى الله تعالى بترك ما نهى عنه، وفعل ما أمر به بقدر الاستطاعة، فإنه هدى للمتقين.[١] وقد التزما بعدم الانشغال، كعادة المفسرين، بمباحث اللغة، والنحو، والبلاغة، وألا تأسرهما الخلافات الجدلية بين علماء الكلام، ولا تخريجات واستنباطات الفقهاء، والأصوليين، المقلدين منهم على الخصوص، إلا بما يخدم المقاصد السابقة مما هو ضروري، ولا يفهم كلام الله إلا به، ويعدّان ذلك كله، وغيره من تأويلات المتصوفة، وتعصب الفرق والمذاهب، مما يصرف عن الفهم الحقيقي للقرآن، وسواء في ذلك مباحث العلوم التقليدية أو المحدثة، ما دامت تشترك في العلة نفسها.

وممن أصَّل لهذا المبدأ جمال الدين الأفغاني، ومما قاله في الموضوع: " أما ما تراكم عليه -أي القرآن- من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم، فلا ينبغي أن يُعوَّل عليها كوحي، وإنما نستأنس بها كرأي، ولا نحملها على أكفنا مع القرآن، في الدعوة إليه وإرشاد الأمم إلى تعاليمه..."[٢]

وبالمقابل كان تركيز الشيخين، عبده ورضا، على كل ما يحقق هدايات القرآن بأسلوب يوافق حال العصر، ويراعي أفهام صنوف القارئين، كما يتوسعان فيما أغفلته كتب التفسير. وقد وفيا بكثير من هذه الالتزامات إلى حد ما.[٣]

---

(١) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٧.

(٢) عبد الحميد، محسن. **دراسات في أصول التفسير**، الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٤م، ص١٦ - ١٧.

(٣) ولا يؤثر في ذلك ما ينجران إليه أحياناً من مسائل جزئية، تستغرق صفحات لدرجة تنسي القارئ موضوع الآية المفسرة، فهي أولاً حالات محدودة، وثانياً لا تخلو من تحقيق مقصد.

والتفسير بالنسبة للمدرسة نوعان؛ نوع يكتفى فيه بتبيين ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه، ويصرف الناس عن الشر ويجذبها إلى الخير، وهو المتيسر لكل واحد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، ونوع يحتاج معه المفسر إلى بيان الألفاظ القرآنية ودلالاتها، وتطور استعمالها، وفهم الأساليب الرفيعة للقرآن بقدر الطاقة طبعاً، وهذا لا يحصل إلا بالممارسة، والإلمام بعلوم اللغة، وعلم أحوال البشر، والسنن الإلهية فيهم، والعلم بوجه هدايتهم بالقرآن، وهذا لا يتأتى إلا بمعرفة سيرة الرسول ﷺ وظروف عصره.

فمتى استوفى المفسر هذه الشروط واستعملها لغاياتها، وهي معرفة حكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام، كان تفسيره مشروعا مقبولاً محموداً، ومتى حصر جهده في حل الألفاظ وإعراب الجمل، وحشر النكت الفنية، كان تفسيره تمارين في فنون النحو والمعاني، وكان جافاً مبعداً عن الله وكتابه.(١)

وكان رشيد رضا متأثرا إلى حد ما بمنهج "العروة الوثقى" الذي لخص في المنار معالمه الكبرى وهي:

أ- بيان سنن الله تعالى في الخلق ونظام الاجتماع البشري، وأسباب ترقّي الأمم، وتدنّيها، وقوتها وضعفها.

ب- بيان أن الإسلام دين سيادة وسلطان، وجمع بين سعادة الدنيا والآخرة، ومقتضى ذلك أنه دين روحاني اجتماعي، ومدني عسكري، وأن القوة الحربية فيه لأجل المحافظة على الشريعة العادلة، والهداية العامة، وعزة الملة، لا لأجل الإكراه على الدين بالقوة.

ت- بيان أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم، فهم إخوة لا يجوز أن

(١) انظر هذه الشروط بنوع من التفصيل في:

- رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٢١ - ٢٥.

يفرّقهم نسبٌ ولا لغة، ولا حكومة.[١]

وهذا ما رغبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الهجرة للقاء السيد جمال الدين والأخذ عنه، ولما لم يفلح عزم على لقاء تلميذه الأستاذ عبده؛ لأن التلقي المباشر عن الشيوخ فيه مزيد فائدة، ولأن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر من الكلام المقروء، ولأن النظر إلى المتكلم وحركاته ولهجته في كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه، ويمكن سؤاله عما خفي منه.[٢]

كان محمد عبده، كما يصفه تلميذه رشيد رضا، ميالاً إلى التفكير والعقل الحر أكثر من ميله إلى التقليد بكتاب معين، يقرأ المصحف، ويلقي ما يفيض الله على قلبه.[٣] وكان يقرأ لمن سبقه من المفسرين، ويحاكم ما يقرأ، ولا يلغي عقله أمام عقولهم، بل يندد بمن يكتفي في التفسير بالنظر في كتب المتقدمين، ويحث على إعمال الناس عقولهم فيما يسمعون وما يقرؤون، وهمه أن ينوّر عقولهم بالقرآن، فالله تعالى كما قال: "لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس، وما فهموه، إنما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا، وعن سنة نبينا الذي بين لنا ما أنزل إلينا، يسألنا هل بلغتكم الرسالة، هل تدبرتم ما بُلّغتم؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم؟[٤]

وتحرره في فكره واضح في تفسيره الذي ضمّنه كل اهتماماته وأهدافه، لا يكترث بضغط الواقع ولا يتقيد بقيوده، ولا يهتم بمجاراة علماء عصره، ولا تأسره أفكار القدامى، ولا أدل على ذلك من مقولته المشهورة التي يتندَّر بها العلماء لما اعترض عليه أحدُهم بأن ما قاله في تفسير آية لا يوافق عليه الجمل، أحد محشّي تفسير الجلالين، فأجابه الإمام على الفور: "إنني أقرر المعنى الجليل والكلام البليغ، ولا يعنيني أوافق عليه الجمل أو الحمار."[٥]

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١١.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص١٣.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٤.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٢٧.

(٥) أمين، عثمان. **محمد عبده**، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٤م، ص٢٧.

ويوضح السيد رضا أن ما كان قطعي الدلالة من النصوص فهو الشرع العام الذي يجب على المسلمين اتباعه عملاً وقضاءً، وأما ما كان ظني الدلالة فهو موكول إلى اجتهاد الأفراد في التعبدات والمحرمات، وإلى أولي الأمر في الأحكام القضائية.[١]

وأركان الدين التي لا تثبت إلا بنص كتاب الله تعالى، أو بيان رسوله ﷺ لمراده منه، ثلاثة:

أ- العقائد، والعلم اليقيني واجب فيها، ولا يُعتمد فيها على أخبار الآحاد؛ لأنها لا تفيده ولا توجبه، كما قال الأستاذ الإمام،[٢] وعلى هذا الأساس حكم تلميذه بعدم صحة إيمان المقلد.[٣]

ب- العبادات المطلقة، والمقيدة بالزمان أو المكان أو الصفة أو العدد، ككلمات الأذان والإقامة المعدودة المشروط فيها رفع الصوت.

ت- التحريم الديني: فالعلم المفيد للحق، المبين للهدى في الدين، هو ما كان قطعي الرواية والدلالة من الكتاب والسنة الذي قامت به الجماعة الأولى، وهو الشرع العام الذي لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه، فهو مناط وحدتهم، ورابطة جامعتهم. وما عدا ذلك من أحكام الشرع فيثبت باجتهاد الرأي، فيما ليس له فيه نص، ومداره على إقامة المصالح ودفع المفاسد.

وميز بين نوعين من الاجتهاد؛ اجتهاد الأفراد: ويكون في الأعمال الشخصية، واجتهاد أولي الأمر: ويكون في القضاء والإدارة والسياسة، مع تقييدهم فيه بالشورى في استبانة العدل، والمساواة، والمصالح العامة.[٤] والاجتهاد لا يكون مع

---

(١) رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج٢، ص١٠٩.

(٢) انظر فتواه في طوفان نوح في:

- المرجع السابق، ج١٢، ص١٠٧.

(٣) المرجع السابق، ج١١، ص٣٦٤.

(٤) المرجع السابق، ج١٠، ص٣٧١ وج١١، ص٣٦٥.

أيّ نص ظني، فما كانت دلالته ظاهرة غير قطعية وجب حمله على ظاهره إن لم يعارضه نص مثله، أو أقوى منه، فإن عارضه فحينئذ ينظر في الترجيح بين المتعارضين بالأدلة المعروفة.[1]

وبهذا الوصف ميز بين الحق والباطل في الاعتقاد والعمل، فالباطل من الأعمال ما ثبت بطلانه بدليل شرعي قطعي، كما أن الحق فيها ما ثبتت حقيقته بدليل قطعي، وبينهما واسطة هي ما لا دليل فيه، بخلاف الاعتقاد، فإنه ليست فيه واسطة بين الحق والباطل، ومن الأشياء العملية ما الأصل فيه الإباحة وهو النافع، ومنه ما سكت الشارع عن فرضه وعن تحريمه، وعن قواعد حدوده كما قال النبي ﷺ: "... وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها."[2]

إن تقييد التفسير بتحقيقه لمقاصد القرآن الكريم جهد كبير بذلته مدرسة المنار، وافتتحت به عملها الجاد " تفسير المنار"،[3] وهو ما تجلى في قواعد تفسيرية تعد أسساً لمنهجية تفسير القرآن الكريم، منها:

---

(١) المرجع السابق، ج١١، ص٢٤٠.

(٢) المرجع السابق، ج١١، ص٣٦٦.

والحديث رواه البيهقي في سننه والطبراني في معجمه الكبير وحسّنه ابن رجب، وطرفه: "إن الله فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها ...". انظر:

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخراساني. **السنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، ج١٠، ص١٢، حديث رقم: (١٩٥٠٩).

- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب. **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الموصل: مكتبة العلوم والحكم، ط٢، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م)، ج٢٢، ص٢٢١، حديث رقم: (١٨٤٤١).

- ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن. **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٧، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ج٢، ص١٥٠.

(٣) الدغامين، زياد. "**منهج التعامل مع القرآن في فكر رشيد رضا**"، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت، العدد (٥٠)، سبتمبر ٢٠٠٢م، ص١٩٤.

أ- الاستعانة ببيان سنة رسول الله ﷺ، وما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين في الصدر الأول، وبأساليب لغة العرب وسنن الله في خلقه. يقول الشيخ: "وذلك شأننا في فهم كتاب الله عز وجل نستعين عليه بما ذكر، وبأساليب لغة العرب وسنن الله في خلقه."[١]

ب- توظيف النظريات ونتائج الأبحاث العلمية: وقد وظف النظريات العلمية في شرح وبيان حكمة الله في الكون ومحتوياته، من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وذلك كلما تناول الآيات الكونية في القرآن، ويستطرد في ذكر الفوائد والمنافع، سواء في الهواء وما يتضمنه من غازات، ومكونات كل غاز وتفاعله الكيماوي [٢]... على غرار صاحب تفسير الجواهر، طنطاوي جوهري.[٣] وبين أن في القرآن إرشاداً للمخاطبين إلى علم الفلك وعلم الحيوان،[٤] لهذا لا يرى مانعاً من الاستدلال بما جد فيهما على مستوى البحث العلمي؛ إذ عدّه مما يعين على فهم القرآن،[٥] بل إنه لا يرى النظر في ظواهر الأشياء كافياً للاستدلال بها، بل لا بد من معرفة آيات صانعها وحكمته ورحمته، فالكون وإن كان مُفصحاً في مظاهر الإبداع فيه، إلا أنه لا يفهمه الذين هم عن السمع لمعزولون وللعلم معادون، إشارة منه لعلماء الدين الذين يعادون علم الكون.[٦] وقد نقل عن علماء الغرب في الاجتماع، والنفس، والاقتصاد... ما تأكد من نتائج علومهم وأبحاثهم، مما لا يتناقض مع

---

(١) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٦، ص١٩٦، وقارن بما ورد في خطة منهجه ج١، ص٧ - ٨.

(٢) انظر مثلاً:

- المرجع السابق، ج٨، ص٤٨٢ - ٤٨٩.

(٣) وإن انتقد السيد رشيد إيغاله في الاتجاه العلمي، هو والرازي، لكنه أشاد بدعوته المسلمين إلى الاهتداء بالقرآن، والانتفاع بعلوم الكون التي تتوقف عليها قوة الدول وثروة الأمم في هذا العصر، وقد سبقه السيد رشيد بهذه الدعوة، كما قال.

(٤) المرجع السابق، ج٧، ص٣٩٢ - ٦٣٧.

(٥) المرجع السابق، مقدمة المنار، ج١، ص٧.

(٦) المرجع السابق، ج٢، ص٦٤.

سنن الله في الكون، كأهمية الأخلاق في تماسك الأمم والشعوب، وفي حكمها وسلطانها وعزتها وثروتها، كما أكد عليه علماء الاجتماع الغربيين، أمثال گـوستاف لوبون، وبنيامين كيد، وهربرت سبنسر؛[1] ولذلك لا يمر بآية في كتاب الله تتضمن إشارة إلى حقيقة علمية، سواء في الاجتماع أو الطبيعة أو الفلك، إلا ولفت الأنظار إلى ضرورة الاهتمام بالعلوم التي تنهض بالأمة، وأرشد إلى البحث فيها؛ لمعرفة سنن الله، وآياته الدالة على علمه، وحكمته، ومشيئته، وقدرته، وفضله، ورحمته. ولأجل الإفادة منها على أكمل الوجوه التي ترتقي بها الأمة في معاشها وسيادتها.

وقد دعا الأستاذان عبده ورضا إلى إدخال جميع علوم العمران البشري في الجامع الأزهر والمعاهد التابعة له، فالعلوم الرياضية والطبيعية، كما يقول السيد رشيد: محور الثروة والقوة في الأمة، ويجب أن تعلم مع الدين، وأن يقوم بتعليمها رجال الدين أنفسهم؛ لأن تركها للملحدين والمتفرنجين يجعلها خاصة بهم، وهؤلاء لا يرجى منهم خير للأمة والملة، أما ترك هذه العلوم بالكلية؛ فهو مُذْهِب للدنيا والدين؛ إذ الدين لا يمكن حفظه إلا بالدنيا، فتعين بذلك وجوب الجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا.[2]

وأثبت رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفوق من جمع بين هذه العلوم من الطلبة على من تخصصوا في

---

(١) المرجع السابق، ج١٠، ص٣٨.

وگـوستاف لوبون (المولود عام ١٨٤٢م) طبيب ومؤرخ فرنسي عني بالحضارة الشرقية، من آثاره: "حضارة العرب"، والحضارة المصرية"، و"حضارة العرب في الأندلس". وهو ممن أنصفوا الحضارة العربية والإسلامية.

وهربرت سبنسر مفكر إنجليزي (ولد عام ١٨٢٠م) حاول وضع فلسفة تركيبية شاملة محورها مفهوم التطور، من كتبه: "الاستاطيقيا الاجتماعية"، و"مبادئ علم النفس"، و"المبادئ الأولى"، و"مبادئ البيولوجيا"وغيرها. توفي سنة ١٩٠٣م. انظر:

- هاشم، جلال. **قاموس الفلاسفة**، الدار البيضاء: دار الخطابي، ط١، ١٩٩١م، ص١٠٠.

(٢) رضا، **مجلة المنار**، مرجع سابق، مج٢، ص٦٩. وانظر أيضاً:

- رضا، **المنار والأزهر**، مرجع سابق، ص٢٠٨.

بعضها بإحصائيات نشرها في المنار،[1] فالتخصص ينبغي أن يترك إلى المراحل النهائية، ويكون في العلوم والفنون التي يرجع إلى أصحابها في دقائقها ومشكلاتها. وهذا يدحض ما يذهب إليه كثير من أصحاب القرار ببلاد الإسلام في الوقت الحاضر؛ إذ يحرمون الطلاب من استيفاء الحد الكافي من علوم اللغة والشريعة التي تمكنهم من فهم دينهم، والتشبث بقيمهم ومبادئهم.

ويرى السيد رشيد من جهة أخرى إدخال مباحث علوم الكون في التفسير، والعمل بهدي القرآن فيه، وعدها من أهم أركانه، فهو مملوء بذكر آيات الله في خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما.[2] وهو منهج أستاذه الذي وصفه بعضهم بالتطرف في هذه الناحية، حين شرح الأمور التي لا بد منها لتحقيق مرتبة التفسير العليا فقال: "أجمل القرآن الكريم عن الأمم وعن السنن الإلهية وعن آياته في السماوات والأرض وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علماً، وأمرنا بالنظر والتفكير والسير في الأرض، لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاءً وكمالاً، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكنا كمن يعدّ الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة،"[3] ولا غرو في هذا، فقد أعجبا بالحضارة الغربية وما وصلت إليه في التقدم العلمي، ولذلك تجد رضا من حين لآخر يلفت الأنظار إلى أسباب تخلف المسلمين، ويهاجم المتكلين على الخوارق وأهل القبور الموتى من الصالحين.[4]

قد يلاحظ بعضهم عليه مجافاته لمذهب السلف في هذا الاتجاه، غير أنه واع بذلك، فسنده فيه عمل السلف والخلف الذين يذكرون ما يعلمون من أسرار الخلق، بل وما يتلقَّونه حتى من أهل الكتاب، وإن كان لا يوثق بعلمهم ولا

(١) رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج٣، ص٧.

(٢) المرجع السابق، ج٨، ص٩١ وج٩، ص١٧٧.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٣.

(٤) المرجع السابق، ج١١، ص٢٣٦.

روايتهم، وقد حاول -في غير ما مسألة- التوفيق بين السلفيين والعقلانيين، وذلك بتقريب مذهب السلف إلى العقول التي لا يرجى أن تهتدي به، وتأخذه بالقبول إلا بإثباته بما ألفت من طرائق الاستدلال، وإيضاحه بما يقربه إليها من ضرب الأمثال،[1] فقد ارتضى أن يكون تفسيره كما قال: "علمياً عملياً أثرياً عصرياً."[2]

وقد وفقت المدرسة إلى حد ما في التوفيق بين القرآن وما أثبته العلم من نظريات صحيحة، بشهادة أغلب من تعرضوا للموضوع.

ت- تناول الآيات القرآنية في عالميتها وشموليتها؛ وذلك حتى يتسنى للمجتهد إدراك غايات القرآن ومقاصده، وينفتح على القضايا الإنسانية، وقد أشرت إلى هذا في موضوع خصائص الإسلام.

ث- التعامل مع القرآن على أنه وحدة بنائية وموضوعية: وهذا واضح في تناول المنار للآيات تناولاً موضوعياً، يستغرق تحليل ومناقشة قضية، مثل الخمر، والربا، والقمار، والميسر وغيرها، عشرات الصفحات، مستشهداً بكل الآيات والأحاديث الواردة فيها، لدرجة يتصور القارئ أنه استنفد كل كلام حولها، فلن يعود إلى تفسيرها في مواضع أخرى. وأكد أن هداية القرآن، وحكمه، ومقاصده، ومظاهر إعجازه لا تتحقق إلا بضم نصوصه بعضها إلى بعض منتقداً من يجتزئ، من المفسرين، آيات وينتصر بها لمذهب معين، ويعرض على سائر الآيات في موضوعها. ففهم القرآن، كما يقول: لا يكون صحيحاً إلا بالجمع بين الآيات المتقابلة في الموضوع الواحد، الذي يختلف التعبير فيه باختلاف الوجوه والمسوّغات. فهو يفسر بعضه بعضاً ويؤيده، وكل ذهول عن مقارنة الآيات المتناسبة بعضها ببعض يوقع في الخطأ.[3]

---

(١) المرجع السابق، ج٩، ص١٣٧.

(٢) المرجع السابق، ج١٠، ص٣١٢.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٢ وج٥، ص١٠٧ وج٨، ص٤٤ - ٤٥ وج١٠، ص١٨٢ - ١٩٨.

وهذه الخاصية جعلت المنار جديراً بأن يصنّف ضمن التفسير الموضوعي الذي نادت به المدرسة، من ضمن ما نادت به، لولا الميل من حين لآخر إلى مناقشة قضايا جزئية، ربما اضطر الشيخ رشيد للخوض فيها؛ نظراً لتعدد الجبهات التي رابط فيها، وتعدُّد الخصوم وتنوّعهم.

٢- الترجيح بالمصلحة والمقصد:

هو معلم آخر يوضح الأول ويكمله، فمن بين الأسس المعتمدة عند الشيخ رشيد في الترجيح بين آراء العلماء والمذاهب في المسائل الخلافية، الترجيح بالمصلحة والمقصد سواء كان مقصد الشارع أو المكلف، ومثاله ترجيح قول مالك والنخعي في مسألة صرف الصدقة إلى صنف واحد من الأصناف الثمانية، فهي تُصرَف إلى أمسهم حاجةُ كما قال الإمام مالك، أو إن كانت قليلة كما اختار النخعي، على عكس ما ذهب إليه الشافعي من عدم الجواز مطلقاً، وما ذهب إليه أبو حنيفة المبيح له دون شروط.[١] فما ذهب إليه النخعي ومالك رَحِمَهُمَاٱللَّهُ فيه مراعاة المصلحة والمقصد الشرعي منها.

وتحكيم القواعد العامة في دفع المفاسد وحفظ المصالح، إذا لم ينص على حكم مسألة، من أبرز قواعد الإسلام التي احتفى بها المنار، وأزال بها كثيراً من الاختلاف، ووفق بها بين المذاهب والآراء المتعارضة، ويسر بها سبل الفهم للنصوص المتناقضة، من ذلك تعليقه على قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩]، بأن حكمة الله اقتضت بأن: " يبين لكم آياته في الأحكام المتعلقة بمصالحكم ومنافعكم، فيظهر لكم الضار أو الراجح فتعلموا أنه جدير بالترك فتتركوه على بصيرة واقتناع بأنكم فعلتم ما فيه المصلحة، كما يظهر لكم النافع فتطلبوه."[٢]

---

(١) المرجع السابق، ج١٠، ص٥١٠ - ٥١١.

(٢) انظر تفسير الآية في:

- المرجع السابق، ج٢، ص٣٣٨ - ٣٣٩.

ومن أمثلة ترجيحه بالمقصد حكمه في نصب التماثيل للملوك والزعماء والعلماء، فلا يرى به بأساً إذا كان القصد رفعة شأن الدولة، وتمكين سلطانها في أنفس الأمة بمشاهدة صور ملوكها وكبراء رجالها، وهو قصد سياسي صحيح عند أهله، وكذا إذا كان القصد بعث شعور حب العلم والاقتداء بالعلماء والأدباء الذين نفعوا أمتهم عسى أن يوجد في المستعدين من يكون مثلهم، وهو قصد اجتماعي صحيح عند علماء التربية، على عكس ما إذا كان القصد تعظيم العبادة فحرام؛ لأنه من مظاهر الشرك،[1] فالإسلام ما حرم التماثيل إلا لأنها شرك، أو ذريعة له، أو تشبه بأهله، فأغلظها الأول وأخفها الأخير، وأهون التشبه ما كان في أمور الدنيا والعادات إلا أنه يجتنب ما لنا غنى عنه، أما ما لا غنى عنه فقد يصير ضرورياً، وقد مثل له ببعض العلوم، والفنون، والصناعات. وعدّ التمييز بين هذه الحالات وحسن الاختيار والموازنة بينها من علامات الأمة الحية.[2]

وقد أوردتُ هذا المثال؛ لأبرز فقط مدى تحكيم الشيخ رشيد القصد في فهم أحكام الشريعة، لا أني أوافقه على جواز تنصيب التماثيل للزعماء والعلماء، ولو للحكمة التي عزاها لعلماء التربية؛ إذ تتضمن شريعتنا من قواعد التربية على الطاعة لأولي الأمر، وعلى الاقتداء بالعلماء ما يغنينا عن النصب والتماثيل، وكل ما حرمه الله مما لم يقترن صراحة بعلته، حيث يزول الحكم بزوالها[3]

ومن جهة أخرى يفاضل بين الأعمال بوصف مقاصدها، فالمفاضلة بين إبداء الخير وإخفائه تختلف باختلاف العاملين، والباعث على العمل، وأثر الإبداء والإخفاء له، "فمن كان كامل الإيمان عالي الأخلاق لا يخاف على نفسه الرياء، لا فرق عنده بين إبداء الخير وإخفائه من جهة نفسه، فهو يرجِّح أحد الأمرين بنية

(١) المرجع السابق، ج٩، ص١٠٥ - ١٠٦.

(٢) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٣) وقد ثار جدل قبل بضع سنوات بين العلماء بخصوص هذه المسألة حين أقدمت حركة طالبان على هدم تماثيل بوذا في أفغانستان.

صالحة، أو منفعة بيِّنة، ومن ليس كذلك ينبغي أن يرجِّح الإخفاء حتىٰ لا يكون له هوىٰ فيه، ومن بواعث الإبداء قصد القدوة، ومن بواعث الإخفاء قصد الستر وحفظ كرامة من يوجه إليه الخير كالصدقة علىٰ الفقراء المتعففين."[1]

وقريب من الترجيح بالمقصد الترجيح بالسنن الاجتماعية، مثال ذلك النهي عن صبغ الشعر بالسواد؛ إذ يرىٰ أنه لا ينبغي التشدد فيه؛ لأن الأحاديث الواردة فيه ليست قطعية، لكن التحريم وارد إذا ما قصد به التشبه بالكفار، لما فيه من ضرر معنوي وسياسي؛ لأن المتشبه بقوم في سنن الاجتماع يقوي عظمتهم في نفسه فتضعف فيها رابطته بقومه وأهل ملته.[2] وليته رَحِمَهُ ٱللَّهُ عاش إلىٰ زماننا، ليعاين ما حذر منه، ويرىٰ ما فعله هذا التشبه بشباب اليوم ذكوراً وإناثاً، فيتأكد من صدق قوله.

وشبيه بهذا الحكم في الدلالة علىٰ صدق حدس الرجل، وقوة شعوره وبعد نظره، ما أفتىٰ به في عدم جواز الاستعانة باليهود في إصلاح المسجد الأقصىٰ، فحرم قبول تبرعاتهم، وإن لم يتولوا العمل، لما علم من طمعهم في الاستيلاء عليه والتوسل بكل ما من شأنه أن يكون ذريعة لادعاء لهم فيه.[3]

وكثيراً ما يدعم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يذهب إليه من ترجيحات من هذا النوع، بآراء العلماء المهتمين بأسرار الشريعة، كالغزالي، وابن تيمية، وابن القيم، والدهلوي وغيرهم، وأحياناً ينقل عنهم فصولاً بكاملها، كنقله عن الدهلوي المقاصد الشرعية من قسمة الغنيمة، ومباينتها لقسمة الزكاة.[4]

---

(١) كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١]. انظر:

- المرجع السابق، ج٦، ص٧.

(٢) المرجع السابق، ج٩، ص٣٠٩.

(٣) المرجع السابق، ج١٠، ص٢٠٨.

(٤) المرجع السابق، ج١٠، ص١٠ - ١٥.

وأختم هذه الأمثلة بمثال للترجيح بالقصد عند أستاذه، فقد ورد في تعقيبه على اختلاف العلماء في التداوي بالخمر؛ إذ حرَّمه بعضهم مطلقاً، وأجازه بعضهم بشرط عدم وجود الحلال، قال: "يجوز ما لم يقصد المتداوي بها اللذة والنشوة، ولا يتجاوز مقدار ما يحدده الطبيب."[1] وهذا المثال أقل من سابقه خطورة؛ لأن الحديث الذي يستند إليه كثيرون في حرمة التداوي بالحرام ضعيف في سنده.[2]

٣- التركيز على التدبر والتأمل:

اعتنى المنار كثيراً بمعاني التدبر في القرآن الكريم استماعاً وتلاوةً وفهماً ودراسة، فكل ضوابط التعامل مع هذا القرآن، ينبغي أن تفعل عملية التدبر؛ لتنتج فهماً سديداً وعملاً مستقيماً، وقد عدَّ الشيخ من أسباب تخلُّف الأمة عدم تدبرها لكلام الله، فلو استقام المسلمون عليه، واهتدوا به في كل مكان، لما فسدت أخلاقهم وآدابهم، ولما ظلم واستبد حكامهم، ولما زال ملكهم وسلطانهم.[3] وعدَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من لا مقصد له سوى مجرد التلاوة مثل الحمار يحمل أسفاراً؛ لأنه لا يفهم أسراره، ولا يعرف هداية الله فيه.[4] فلو تدبَّر جهّال المسلمين القرآن، كما قال، لعلموا أنهم مغرورون بالاعتماد على الأقطاب والأوتاد والأبدال في تحمل البلاء عنهم، ومنع العذاب أن ينزل بالأمة ببركتهم.[5]

---

(١) المرجع السابق، ج٧، ص٨٩.

(٢) وهو: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء فتداووا، ولا تداووا بحرام. " رواه أبو داود في سننه، وضعفه الألباني. انظر:

- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج٢، ص٤٠٠، حديث رقم: (٣٨٧٤).

- الألباني، محمد ناصر الدين. **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٥هـ، ص٥٩، حديث رقم: (٦٦).

(٣) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٩٧ بتصرف.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٤٤٨.

(٥) المرجع السابق، ج١، ص٣٧٠.

وهذا التدبر فرض على كل مكلف، ولا يشترط فيه سوى معرفة لغة القرآن، مفردات وأساليب، ولكل واحد الحق بعد ذلك أن يستقل في فهمه له، ولا حجر لأحد عليه مادام المقصد هو إشعار القلوب عظمة الله تعالى وحبه، والرجاء في رحمته، والخوف من عقابه.[1]

فالقرآن بيان وبصائر للناس لا يتطلب الاهتداء بأحكامه ووصاياه ما سيّجه به المتأخرون من شروط وقيود، بل الكل متاح له أن يتدبر ما يقرأ وما يسمع، في صلاة أوخطبة أو درس أو موعظة أو غير ذلك. ولا يخفى أن التدبر والتأمل طريق إلى إدراك المقصد، ومنفذ إلى أسرار كتاب الله.

٤- تحري الحق والصواب واليقين:

هو منهج السلف الصالح، فكلما واتت الشيخ الفرصة للحديث في الموضوع، ينتقد بشدة ما آل إليه الأمر في زمنه، من تفشّي التقليد، ومناهضة استخدام العقل التماساً للدليل.[2] والدليل إما قرآن، أو سنة صحيحة، أو اجتهاد عن طريق إعمال العقل في النصوص، ألفاظاً ومعاني، وسياقاً ومقاصد. وله استقلالية في الفكر والفهم، لا يتشبث بالرأي أو الحكم أو التفسير لكثرة القائلين به، بل هو مع قوة الدليل وصحة مستنده، لذلك خالف كبار المفسرين في كثير من الآيات، من ذلك تفسيره للركون في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣] بالاستناد والاعتماد على ولايتهم منتقدا تفسير الزمخشري،[3] الذي قال فيه: "والنهي متناول للانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم، وزيارتهم، ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه

---

(١) المرجع السابق، ج٥، ص٢٩٥ - ٢٩٧بتصرف.

(٢) انظر مثلاً:

- المرجع السابق، ج١، ص٤٢٥.

(٣) ومن تبعه عليه، كابن العربي، والقرطبي، والطوسي، والرازي، والبيضاوي، والنسفي، وأبي السعود، والألوسي.

تعظيم لهم"، وقال: إنه غلط منه؛ لأنه مشتق من الركون، وهو الجانب القوي من البناء، ومن كل شيء. وأسهب في رده على كل من تبعه على هذا التفسير محتجاً باللغة والمعنى والمقصد.[1]

٥- النفور من الإسرائيليات، ورفض الروايات الضعيفة:

كان نفور الإمامين رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ من الإسرائيليات شديداً، خصوصاً وأنهما لا تشغلهما الجزئيات وتفاصيلها التي غالباً ما تكون مادة للأخبار الإسرائيلية، فلا فائدة للناس فيها، وإلا لدلنا الله عليها في كتابه، أو على لسان نبيه ﷺ، فهي غير مقبولة، ليس لأنها لا أصل لها فحسب، بل للأخطار المدمرة المترتبة عن اعتناق تلك المعلومات التي أضعفت العقل المسلم. فغالب ما يرد من القصص في كتب التفسير بالمأثور، المرتبط بجزئيات الوقائع والزمان والمكان، مشحون بالمبالغات، والأساطير المحشوة بالخرافات.[2] ورفضها للإسرائيليات مبدأ، وإن كانت مرفوعة، أو تعددت طرقها، بل وحتى لو وردت في الصحيح كما يقول الشيخ رشيد.[3] أما إن كانت مشتملة على ما ينكره الدين أو العلم، فإنه يقطع ببطلانها، ويعدّها دسيسة إسرائيلية، ومن أمثلتها إسناد الشرك إلى آدم وحواء، وأن الرعد صوت ملك يسوق السحاب بعصاه، والخسف بقوم لوط، وأن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قلع قراهم من تخوم الأرض بجناحه، وصعد بها عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدجاج فيها، ثم قلبها قلباً مستوياً فجعل عاليها سافلها.[4]

وقد دعا إلى تفعيل منهج نقد المتن، الذي يُعدّ من مفاخر العلوم الإسلامية، فهو لا يعتقد، كما قال: "صحة سند حديث، ولا قول عالم صحابي يخالف ظاهر

---

(١) المرجع السابق، ج١٢، ص١٧٣ - ١٧٩.

(٢) عبده، محمد. **تفسير جزء عم**، القاهرة: الجمعية الخيرية الإسلامية، ط٣، ١٣٤١هـ، ص٥٩. وانظر أيضاً: - رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٠.

(٣) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٣٢٥.

(٤) المرجع السابق، ج٨، ص١٧٤ - ١٧٥ وج٩، ص٥٢١ وج١٢، ص١٣٨.

القرآن، وإن وثقوا رجاله، فرب راو يوثق للاغترار بظاهر حاله، وهو سيئ الباطن، ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها، كما تنتقد من جهة سندها لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض."[1] وبذلك يخلص التفسير من الكم الكبير من الروايات التي لا تستقيم مع مقاصد القرآن الكريم وهدايته.

فهو يحتاط في الأخبار والروايات، ويحكم العقل، ويعتمد القرائن في الترجيح.[2] كما لا يعتد بالأحاديث المتضاربة، أو المعارضة للقطعي من السنن الإلهية في الكون، أو مع الواقع، من ذلك مثلاً ما تعلق بالمسيح الدجال ومكان اختبائه،[3] كما ينكر أحاديث المهدي، وينقد أسانيدها ورواياتها؛ لأنها معارضة لسنن الله في الكون.[4] ومنهجه قائم على عدم التصديق بوقوع شيء على خلاف السنن الثابتة المطردة في نظام الأسباب العامة، إلا إذا ثبت ثبوتاً قطعياً لا يحتمل التأويل.

وكل حديث مشكل المتن أو مضطرب الرواية، أو مخالف لسنن الله تعالى في الخلق، أو لأصول الدين أو نصوصه القطعية، أو للحسيات وأمثالها من القضايا اليقينية، فهو مظنة للطعن فيه ورده، كما في أحاديث الفتن التي ذهب إلى أنه لم يثبت منها إلا القليل،[5] وقد عزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على التصنيف في أحاديث الفتن وآيات الساعة، لكن الأجل لم يمهله كما ذكر في تفسيره.[6]

وهكذا نجده في أمثلة كثيرة يحكم الدراية فيما اضطربت أو ضعفت فيه الرواية، خصوصاً مرويات كعب الأحبار، ووهب، وهمام ابني منبِّه.[7]

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١٤١.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤٣١.

(٣) المرجع السابق، ج٩، ص٤٩٠ - ٤٩٥.

(٤) المرجع السابق، ج٩، ص٥٠٠.

(٥) وهو مذهب أستاذه أيضاً، انظر:

- رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٩، ص٥٠٧ وج١١، ص١٤١.

(٦) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٧) المرجع السابق، ج٩، ص٥٢١.

وهو ملم بكل الروايات الواردة في أسباب النزول، وينتقد المفسرين فيما يحشرونه منها دون ترو ولا بحث، إن كانت ضعيفة، فكيف إن لم يكن لها أصل. من ذلك مثلاً ما ذكره الرازي، وتبعه الألوسي، في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: ٨٠]، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩] سأل النبيَ ﷺ اللامزون الاستغفار لهم، فهمّ أن يفعل، فنزلت فلم يفعل. وقيل: نزلت بعد أن فعل، واختار الرازي عدمه؛ لأنه لا يجوز الاستغفار للكافرين. قال الشيخ بعد هذا النقل: "وهذه الرواية لم نرها في كتب التفسير المأثور، فلا ندري من أين جاء بها الرازي."[1] ذلك أنه لم يعزها لأحد، ومعارضة بما ورد في سبب نزولها من أنه نُهي عن الاستغفار لعبد الله بن أبي، زعيم المنافقين، كما اتفقت عليه كتب التفسير.

ولم يسلم كثير منهم من نقده كالسيوطي الذي وصفه بحاطب ليل، لكونه يجمع الروايات دون نقدها، وتمييز المقبول من المردود منها.[2] هذا دليل على أنه على اطلاع واسع على ما ورد في كتب الحديث والتفسير، وغيرها من كتب التراث. وله إلمام بالحديث رواية ودراية، يتحدث في الأسانيد والرجال،[3] وفي طرق الرواية وقواعد التحديث، ويفوق رَحِمَهُ اللَّهُ أستاذه في الاطلاع على السنة النبوية، وهو أمر لا غنى للمفسر عنه.[4]

ومن الأصول المتفق عليها التي يعتد بها في مجال الرواية:

أ- أن ليس كل ما صح سنده يكون متنه صحيحاً، وما كل ما لم يصح سنده يكون متنه غير صحيح، وإنما يعوّل على صحة السند إذا لم يعارض المتن ما هو قطعي في الواقع، أو في النصوص، وأن القرآن مقدَّم على الأحاديث عند التعارض

(١) المرجع السابق، ج١٠، ص٥٦٧ - ٥٦٨.

(٢) المرجع السابق، ج٩، ص٤٧٠ - ٤٧١، ٤٩٨.

(٣) المرجع السابق، ج١٠، ص٤٠٤ - ٤٢٢.

(٤) شاكر، أحمد محمد. "السيد رشيد رضا"، **مجلة المقتطف**، العدد (٨٧)، السنة ١٩٣٥م، ص٣١٨ - ٣٢١.

وعدم إمكان الجمع.[١]

ب- كما يضعف الرواية التي مضمونها مما لا يخفى، وتتوفر الدواعي على نقله بالتواتر،[٢] ويصدر في أحكامه على الحديث عن علم متين، ومنهج دقيق، "فقد امتزج خلق التمحيص بلحمه ودمه، وأصبح لا ينشرح صدره إلى الخبر إلا إذا وثق بأسانيده وأمانة رجاله."[٣] وقد شهد له العلماء بالتضلع في الحديث وعلومه، منهم الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي قال عنه: "فإذا كان من الحق أن يعترف أهل الفضل بالفضل لذوي الفضل، فأجد نفسي بهذه المناسبة الطيبة مسجلاً هذه الكلمة؛ ليطلع عليها من بلغته، فإنني بفضل الله عَزَّوَجَلَّ، بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولاً، وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة والصحيحة ثانياً، يعود الفضل الأول في ذلك إلى السيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن طريق أعداد مجلة المنار التي وقفت عليها أول اشتغالي بطلب العلم."[٤] هذا مع العلم أنه انتقده هو وأستاذه فيما ذهبا إليه من بعض التأويلات أو من تضعيف بعض الأحاديث الصحيحة، وسأشير إليها في موضعها.

ت- الجمع بين الآيات المتقابلة في الموضوع الواحد الذي يختلف التعبير فيه باختلاف الوجوه والاعتبارات.[٥]

٦- التفويض في الأمور الغيبية:

فهي لا تعلم علماً صحيحاً إلا بالتوقيف المستند إلى الوحي،[٦] وهو منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذي صرح الشيخ رشيد باتباعه غير ما

---

(١) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١٠، ص٥٨٠.

(٢) المرجع السابق، ج١١، ص١٩ - ٢٠.

(٣) أرسلان، **السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة**، مرجع سابق، ص١٨.

(٤) آل حمزة، خالد بن فوزي بن عبد الحميد. **محمد رشيد رضا: طود وإصلاح، دعوة وداعية، جهاده في خدمة العقيدة وأثره في الاتجاهات الفكرية المعاصرة**، الإسكندرية: دار علماء السلف للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م)، ص٤٥.

(٥) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١٠، ص١٩٨.

(٦) المرجع السابق، ج٨، ص٤٢٦.

مرة، كقوله في تفاصيل الجنة والنار: "لا نثبت ما لا نعرف،"[1] "ويسعنا في ذلك ما وسع صحابة رسول الله،"[2] وما يشبه هذا التعبيرفي الغيوب عامة، وفي أمور الآخرة بصفة خاصة، فهي كما قال: "من عالم الغيب، فلا ندرك كنهها وصفاتها من الألفاظ المعبرة عنها، فمذهب السلف الحق الإيمان بالنصوص مع تفويض أمر الكنه والصفة إلى عالم الغيب سبحانه، والواجب علينا مع الإيمان بالنص، العبرة المرادة منه في إصلاح النفس."[3]

والأستاذ الإمام بدوره يقر أنه على طريقة السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله وصفاته وعالم الغيب، إلا أنه إذا اقتضى الكلام حمله على معاني تليق بالذات الإلهية يسير على كلا الطريقتين، وصرح بذلك نفسه،[4] مؤكداً أن الله يمثّل لنا المعاني في صور محسوسة، كما في الخطاب بين آدم وملائكته في نظره.[5]

وسلفيته شهد له بها رشيد رضا حين قال: "كان سلفي العقيدة في سنيه الأخيرة التي عرفناه فيها، فلا يبالي بإمضاء جميع الصفات على ظاهرها مع التنزيه."[6]

وتقييد سلفيته بسنيه الأخيرة قد يمكننا من التوفيق بين التوجهين. وهو ما يحصل لمن يدرس السيد رشيد بدوره، فمع وضوح الاتجاه السلفي في فكره، أكثر من أستاذه، إلا أن له نظرات وتأويلات غير قليلة لآيات في كتاب الله انتقدت عليه في المنار. وكانت حجته "أننا نلم بتأويل بعض الآيات، لأجل الدفاع عن القرآن، ورد بعض الشبهات التي يوردها الفلاسفة أو غيرهم عليها، حتى لا يكون لهم حجة

---

(١) قالها معقباً على الأقوال المتضاربة في كيفية حياة الشهداء. انظر:

- المرجع السابق، ج٢، ص٣١.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص١٠٣.

(٣) المرجع السابق، ج١٠، ص٤٠٩.

(٤) أي: طريقة السلف في التنزيه وطريقة الخلف في التأويل.

(٥) المرجع السابق، ج١، ص٢٥١ - ٢٥٢.

(٦) المرجع السابق، ج٣، ص٣٦٥.

مقبولة عليها، مع تصريحنا بأن اعتقادنا الذي ندعو إليه، ونرجو أن نموت كما نحيى عليه، هو اتباع مذهب السلف في كل ما يتعلق بعالم الغيب من الإيمان بالله، وصفاته، وملائكته، وجنته وناره، والتأويل قد يكون المنقذ الوحيد لبعض الناس من الكفر وتكذيب القرآن."[1] وهذا يعني أن الأصل عنده التفويض في الغيبيات، لكن ادعاءات الخصوم تستلزم سلاحاً من نوع سلاحهم، وهو الأسلوب الذي اتبعه المعتزلة قديماً ضد الفلاسفة، وانتقده عليهم أهل السنة من المحدثين خصوصاً.

والخلاصة أنَّهما رَحِمَهُمَاٱللَّهُ يؤثران بيان المعاني القرآنية كما كان يفهمها الصحابة في الغالب، وإذا اضطرا لتوضيح مشكلة أو دفع تعارض يلجآن إلى التأويل، ولكن بقدر الضرورة، ولهذا لا يعدان بعض الآيات معضلات كما يراها غيرهما.[2] ويستعين رشيد رضا على تحقيق هذا المقصد بسنن الله في خلقه وبأساليب لغة العرب، فهو يعتمد أقوالهم دون الاهتمام بما خالف قواعد النحو، ومذاهب الفقه عند من جاء بعدهم.

ولا يقيس في الأمور الغيبية، ولا يعلل أحكامها، ولهذا رد الاستدلال بوضع النبي ﷺ جريدتين على قبرين يعذب صاحباهما على انتفاع الميت بفعل الحي، ما عدا تصدق الأولاد على الوالدين؛ لأن هذا الحديث واقعة حال في أمر غيبي غير معقول المعنى، وهذا الحكم من الأمور التعبدية التي يجب فيها الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة، وعمل الصدر الأول من السلف الصالح.[3]

ومذهب الإمامين في مبهمات القرآن هو السكوت عنها، والوقوف عند النص القطعي دون تعديه،[4] وكثيراً ما يسخر أحدهما من أقوال بعض المفسرين الذين

---

(١) رضا، **مجلة المنار**، مرجع سابق، مج٢٩، ص١٤٣ - ١٤٧. وفيها رد على انتقاد عالم نجد المفسر الكبير الشيخ عبد الرحمن السعدي.

(٢) المرجع السابق، ج٧، ص٢٢٤.

(٣) المرجع السابق، ج٨، ص٢٦٤ - ٢٦٨.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٣٢٥.

يخوضون في هذه المبهمات، كقولهم عن الميزان إنه بلسان وكفتين كأطباق السماوات والأرض، ولا يعلم ماهيته إلا الله، قال الأستاذ الإمام معقباً على ذلك في تفسير سورة القارعة: "فماذا بقي من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض فيه العلم إلى الله؟!" وخلص من الآية إلى أن العبد عليه أن يؤمن بأن الله يزن الأعمال، ويميز لكل عمل مقداره، وألا يسأل كيف يزن ويقدر، فهو أعلم بغيبه.[1]

ولا يطعن في هذا اجتهاد الشيخ رشيد في بعض النصوص المتشابهة، وبيانه الحكمة منها، كما في الحروف المقطعة؛ أي فواتح السور، التي نفى أن يوجد من العلماء من بين الحكمة منها بمثل بيانه؛[2] لأنه يمكن التمييز في أمور الغيب بين الغيوب المحضة، وغير المحضة من جهة، ومن جهة أخرى يميز فيها بين ما يترتب عليه اعتقاد أو عمل، وما لا يترتب عليه شيء.

ولرشيد رضا موقف من المعجزات والخوارق والسنن يمكن تلخيصه في أن الممنوع عقلاً هو وقوع المحال، وأن الخوارق يخلقها الله بغير سبب، لتدل على أن النواميس، لا تحكم على واضعها ومدبرها.[3]

٧- ذكر الأحكام الفقهية، والاستشهاد لها، والاستدلال عليها:

لم يلتزم الأستاذ الإمام عبده ذكر ما لا يدل عليه القرآن من الأحكام والحكم كثيراً، كما يستفاد ذلك من مثل قوله -حين سئل عن الحكمة في عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً- "أن مثل هذا ليس علينا أن نبحث عنه، وإنما نبحث عما يشير الكتاب إلى حكمته إشارة ما."[4] غير أن الدارس للمنار يجده لم يف بهذا الالتزام، وهو ما دفع السيد رشيد لتسويغه بقوله: "كانت خطته الغالبة فيه ترك ذكر المسائل الخلافية التي لا يدل عليها القرآن، وهذا غير الخلاف في مدلول عبارته... وربما

(١) عبده، **تفسير جزء عم**، مرجع سابق، ص١٤٧.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٨، ص٣٠٣.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٣١٥.

(٤) المرجع السابق، ج٢، ص٤١٩.

يكون ذكر الخلاف وسيلة إلى بيان كونه فوق كل خلاف."[1] وعند ذكر الاختلاف لا يحصره الشيخ رشيد داخل نطاق مذهب معين، بل يرتقي به إلى العالي بين المذاهب والأئمة الكبار. كما في قراءة الفاتحة في الصلاة والبسملة فيها،[2] ومشروعية التأمين بعدها.[3] ولا يحكي الاختلاف فقط، بل يرجِّح، محتجاً بالنقل والعقل، ومناقشاً ومعترضاً على المخالفين، كما في ترجيحه لقراءة البسملة وعدّها جزءاً من الفاتحة.

ومن أوجه الاستدلال عند السيد رضا، إلى جانب الاستشهاد بالنصوص الظاهرة:

أ- القواعد الأصولية: وخاصة قواعد المقاصد فقد أكد أن القاعدة في الإسلام أن ما لا نص فيه بخصوصه يستنبط أولوا الأمر حكمه من النصوص، ومن القواعد العامة في دفع المفاسد وحفظ المصالح.[4] ويحتج بهذه القواعد ويعتمدها في الترجيح أصالة، عند إبداء رأيه، أو تبعاً، حين يحكي رأي غيره مستدلاً به ومعضداً به حجته، وقد أحصيت له جملة من هذه القواعد منها: حمل المطلق على المقيد، والمثبت مقدم على النافي، والاحتجاج بمفهوم الشرط.[5]

ب- أقوال اللغويين، والأدباء، والشعراء، والنحاة، والبلاغيين: وفي المنار أمثلة يصعب حصرها، وتبرز إلى حد كبير تضلع السيد رضا في هذه العلوم والفنون، يتحدث في كل منها حديث المتخصص، ويناقش مسائلها مناقشة الناقد الخبير، هذا فضلاً عن الاهتمام بتحقيق معاني الألفاظ، وتضمنت أجزاء المنار منه ملاحق للألفاظ المحققة معانيها، والمعرّفة حدودها، فضلاً عن الفهرسة المفصلة والمرتبة على حروف المعجم تقرب للباحث المادة العلمية بطريقة ميسرة.

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٩٩.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٨٤.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٩٨ - ٩٩.

(٤) المرجع السابق، ج٦، ص٣٦٢.

(٥) المرجع السابق، ج١٠، ص١٧٢.

٨- فهم نصوص الشرع في جملتها:

إن فهم القرآن الكريم على أنه وحدة متماسكة بحيث إن فهم بعضه يتوقف على فهم جميعه، لمن أبرز مزايا تفسير الأستاذين عبده ورضا، وقد سجلها لهما أغلب من كتب في التفسير وأنواعه وطبقات المفسرين. فهما يعدّان السورة كلها أساساً في فهم آياتها، والموضوع فيها أساساً في فهم النصوص جميعها. ذلك أن الدين واللغة، كما يقول السيد رضا، لا يسمحان بتفكيك السياق الموثق بعض جمله وآياته ببعض، فيجعل نتفاً عضين، وقد يجعل الأول آخراً، والآخر أولاً، وجعل آيات التمهيد متأخرة، في النزول عن آيات القصد، ولهذا عاب الشيخ على علماء أسباب النزول نهجهم في الفصل بين الآيات، وربطها بأحداث وقعت، أو كلمات قيلت.(١) فهو يعتمد سياق الآيات، ويأخذ بعموم التكاليف، فلا يصح استثناء أحد إلا بنص صريح من الشارع، من ذلك مثلاً: تفسيره قول الله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣] بغير طالب له ولا راغب فيه لذاته، وغير متجاوز قدر الضرورة، واستبعد ما فسرهما به غيره، كالجلال الذي قال: غير معتد أو قاطع طريق، فالسياق هنا أحكام الضرورة لا أحكام السياسة والعقوبة كما قال الأستاذ الإمام.(٢) ومن أمثلة تحكيم السياق في تفسير النصوص أيضاً التكفير بترك الصلاة.(٣)

هذا ويتميز المنار باكتشاف ما بين الآيات من تناسب، بين القواعد العلمية في الأخلاق والسنن العامة في روابط الاجتماع من جهة، وبين الوقائع الخاصة التي تُعدُّ من الشواهد على هذه القواعد والسنن من جهة أخرى.(٤) وهذا لا يعني الإعراض عن أسباب النزول، بل يضم بعضها إلى بعض ويستحضر الوقائع

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص١١.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٩٨ - ٩٩.

(٣) انظر أدلته في:

- المرجع السابق، ج١٠، ص١٧٢.

(٤) انظر مثلاً:

- المرجع السابق، ج١٠، ص٥٣٣.

المختلفة، كما في قصة ثعلبة بن حاطب التي عدوها سبباً في نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [التوبة: ٧٥] فقد استشكل ما ورد من تفاصيل القصة، مقارنة مع تاريخ فرضية الزكاة، وحكم قبول التوبة مع بروز علاماتها، وغير ذلك من القرائن.[١] وهو منهج حالفه التوفيق في كثير من المواضع، حيث أزال به الالتباس في الفهم، ورجَّح به حين تتعارض الروايات، ويتعذر الجمع بينها، إما في أسباب النزول، أو في تفاصيل القصص والأخبار حول الآية، وهو ما مكنه من التصدي لكثير من الأخبار الإسرائيلية، مع اعتماد منهج النقد للسند والمتن، كما أرسى أسسه المحدثون.

٩- تطبيق وإنزال الآيات على واقع المسلمين للاعتبار:

فلطالما أنكر على السيد من يصفهم بأدعياء العلم والدين عدّ الآيات التي نزلت في الكفار شاملة لأهل الإسلام والإيمان، وهم مأفوكون على حد تعبيره،[٢] عن تدبر المراد منها، جاهلون للسنن العامة فيها، وهو اعتقاد قوم من أهل الكتاب قبلهم، يظنون، كما يظن هؤلاء، أن الله يحابي الأقوام لأجل رسلهم، ويعطيهم سعادة الدنيا والآخرة بجاههم لا باتباعهم، وهي تجارة الشيوخ المقلدين، والدجالين الضالين المضلين في كل زمان.

فالمؤمن معني في القرآن الكريم بكل خطاب، أمراً أو نهياً، أو خبراً أو قصةً، مهما كان المتحدث عنهم في السياق؛ لأنه المقصود أصالة بالحكم أو العبرة.

١٠- التمييز بين ما يقصد به التشريع، وما يقصد به مجرد الإرشاد:

إن أساس كثير من الشبهات المثارة حول بعض أحكام الشريعة هو الخلط بين ما يقصد به التشريع، وما هو مجرد إرشاد يفهم على ضوء التجربة البشرية والخبرة الإنسانية، وتكون له صيغ مختلفة بحسب الأزمنة والأمكنة، يقول السيد رضا:

---

(١) المرجع السابق، ج١٠، ص٥٦١.

(٢) في التفسير. انظر:

- المرجع السابق، ج٩، ص٣١.

"ليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهي ما لا يتعلق به حق الله تعالىٰ ولا لخلقه، لا جلب مصلحة ولا دفع مفسدة، كالعادات والصناعة والزراعة، والعلوم والفنون المبنية علىٰ التجارب والبحث وما يراد فيها من أمر ونهي يسميه العلماء إرشاداً لا تشريعاً، إلا ما ترتب علىٰ النهي عنه وعيد كلبس الحرير."[1] ويرىٰ أن النوع الثاني حكمته تنبيه الناس إلىٰ أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية، كالزراعة والصناعة، لا يتعلق بها لذاتها تشريع خاص، بل هي متروكة إلىٰ معارف الناس وتجاربهم.

١١- التزام منهج اليسر، ورفع الحرج:

سبق أن بينت أن من أبرز اهتمامات المنار بيان خصائص الإسلام الكبرىٰ، ومنها اليسر ورفع الحرج، فلا غرابة إذن، أن يكون منهجه قائماً علىٰ هذا المبدأ. ولذلك عندما تختلف آراء المذاهب يختار المنار أيسرها، كما في ذبائح أهل الكتاب، فقد اختار رأي المالكية، وعدّ مذهبهم أوسع في باب الطعام.

كما رجَّح مذهب الحنابلة في التوسع في المسح علىٰ العمائم والخفين والجبيرة، وعدّه هنا أقرب المذاهب إلىٰ السنة ويسر الشريعة، وقال بأن كل ما كان أيسر فهو إلىٰ الحق أقرب.[2]

وانتقد كثيراً المتوسعين في الاستنباط والاجتهاد في أحكام العبادات؛ إذ جعلوها حملاً ثقيلاً، يعسر تعلمه، ولا يدخل في وسع أحد عمله، لدرجة لا يمكن تلقي أحكام الطهارة فقط، إلا في شهور، واحتج عليهم بآيات رفع الحرج، وجلب التيسير.[3] وسأخصص إن شاء الله موضوعاً مستقلاً لقواعد المقاصد، أغنيه بمزيد من الأمثلة؛ إذ المقصد الآن مجرد الجرد لمعالم هذا المنهج.

---

(١) المرجع السابق، ج٩، ص٣٠٣.

(٢) لمزيد من التفصيل، انظر:

- المرجع السابق، ج٦، ص٢١٧ - ٢٤٢.

(٣) انظر مثلاً:

- المرجع السابق، ج٨، ص٢٤٠ - ٢٤١.

١٢- الاقتباس القرآني:

مما يدل على سعة الثقافة القرآنية للشيخ رشيد، إلى جانب استحضاره الدائم لأمثال القرآن، وحكمه، وقصصه، طغيان أسلوبه على كتاباته، يقتبس من آيه، ويجاري أساليبه في تقرير الأحكام، أو وصف الأحوال، أو تبليغ الأخبار...

وفيما يأتي نماذج من هذا التمثل، التلقائي أحياناً، المشحون استعارة:

- "الأساليب الحسان اللاتي لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان".
- "صد الكنيسة عن الإسلام وبغيه عوجاً".
- "ثم نكس هؤلاء المسلمون على رؤوسهم".
- "وجمح به جمحاً، وقدحت حوافره له قدحاً، وأثارت له نقعاً".
- "ورعاة تهش على غنمها".
- " إن قارعة تقرع الأرض وتصخّها صخّاً، وترجّها رجاً، فتكون هباءً منبثّاً في الفضاء"، "فتبسّها بساً حتى تكون هباءً منبثّاً".
- "وأي الداعيين أقوم قيلاً".
- "سادتنا وكبراؤنا ".
- "وإن تعجب فعجب".
- "إذا تتبعه وأحاط به خبراً" "فارجع البصر" و"تولوا وهم يجمحون"[1]...

وغيرها من الأساليب التي تتكرر عبر صفحات هذا التفسير. ولا تخفى مرجعية هذه الأساليب الأصلية، إنها الفضاء القرآني الذي شكّل عقل الرجل وكون ثقافته، فمن معينه ارتوى، وعلى كرسيه استوى.

---

(١) تنظر هذه الأمثلة في:

- المرجع السابق، ج٥، ص٦٦ وج١١، ص٢١٥ و١٥٤ و٢٤٧ و١٧٦ و٣٤٠ و٣٤٥ و٣٧٨ و٣٨ وج١٢، ص٢٥٢، وج٣، ص٦٧ وج٩، ص٥٧ على التوالي.

وهو وإن كان حادّاً في لهجته أحياناً مع خصومه، فلا يجافي الحقيقة، ولا يتعصب لفكرة خاطئة أو رأي غير سديد، وكان يبرأ إلى الله في كتاباته من التعصب والتحيز، إلى غير ما يظهر له أنه الحق، والله عليم بذات الصدور.[1]

١٣- التلخيص:

يتميز منهج السيد رشيد رضا بتلخيص ما فصل فيه الكلام في نهاية السورة بطريقة مدرسية تجمع شتات الأفكار، وترتبها بطريقة مغايرة يكون فيها التركيز على الخلاصة والاستنتاج، وهي تفيد الباحث في الاطلاع على أبرز المضامين، وتبرز ما تتميز به السورة شكلاً ومضموناً. فعلى الرغم من كثرة الاستطراد، وطوله أحياناً، فإن المنار في متناول الباحثين والدارسين لقضايا جزئية، بفضل هذا التلخيص من جهة، وبفضل فهارس مفصلة، بطريقة معجمية من جهة أخرى، لا أقول توصل إلى المقصود، لكنها تقرب منه. وأبرز التلخيصات المنتظمة فيه ما يتعلق بمقاصد السور التي تشد نظر القارئ، ليتتبع ما يحققها في ثنايا السورة حتى لا يتشتت عليه الموضوع.

وأسلوب المنار في تحقيق هذا الغرض يتمثل في بيان أحكام الشرع وحكمها، والاستدلال لها والتمثيل بما يوضحها، وبقواعد التشريع وسنن التكوين والاجتماع، وأصول الحكم المتعلقة بالأنفس ومكارم الأخلاق والآداب، وكل ما يحقق مصالح الإنسان الدينية والدنيوية. ومن الحجج والبينات التي يعتد بها على حد تعبيره[2] البرهان في العقليات، والنصوص في النقليات، والخوارق في الإلهيات، والتجارب في الحسيات، والشهادات في القضائيات، والاستقراء في الكليات.

وتجدر الإشارة فقط في ختام الكلام عن المنهج المتبع في المنار، إلى أنه يتعذر التمييز بين منهجي الأستاذين، عبده ورضا، في الأجزاء الأربعة الأولى من

---

(١) انظر مثلاً:

- المرجع السابق، ج٥، ص١٧.

(٢) المرجع السابق، ج١٢، ص٥٠.

التفسير، غير أنه لما استقل الأستاذ رشيد به بعد وفاة أستاذه، خالف منهجه، كما صرَّح به قائلاً: "هذا وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، بالتوسع فيما يتعلق بالآية، من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية، أو المسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات، لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلىٰ تحقيقها."[1] وكان هذا بدءًا من الآية السادسة والعشرين بعد المائة من سورة النساء، إلىٰ الآية الأولىٰ بعد المائة من سورة يوسف، حيث وافته المنية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ليكمل ما تبقىٰ من السورة بعده المرحوم بهجت البيطار.[2]

وعلىٰ ضوء هذه المعالم أشير أيضاً إلىٰ بعض انتقادات السيد رشيد علىٰ المفسرين، ومنها:

أ- تحكيم المذاهب النحوية في القرآن؛ لأن تحكيم قواعد النحو، يحول دون فهم واع لآياته، وهو جرأة كبيرة علىٰ الله كما يقول محمد عبده.[3]

ب- الانتصار للمذاهب الفقهية، وقد رأىٰ فيه تعمية عن معاني النص القرآني الظاهرة، وأبرز أثر التقليد وضرره علىٰ التفسير؛ إذ وصل الحد بأصحابه إلىٰ أخذ المسائل التقليدية قضايا مسلمة، وإن كانت مخالفة لآياته الصريحة.[4]

ورأىٰ في كثرة الاستنباط، مع إغفال المقصد، تعسيراً للفقه مع يسر الدين وسهولته، فالتوسع مشروط وهادف إذا قصد منه بيان معاني التنزيل.

ت- القول إن في القرآن معضلات افتتاناً بالروايات والاصطلاحات المحدثة، بالنسبة لمن يتخذون المذاهب المحدثة أصولاً للدين يعرضون عليها القرآن، فإذا

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٦.

(٢) الذهبي، محمد حسين. **التفسير والمفسرون**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج٢، ص٥٠٧.

(٣) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٣، ص٤٨.

(٤) المرجع السابق، ج٤، ص٦٢.

وافقها، بغير تكلف، أو بتكلف قليل، فرحوا، وإلا عدوها من المشكلات والمعضلات،[1] إن في ذلك تشويشاً على القارئ المطلوب منه التدبر. وعلل الأغلاط الكثيرة التي يقعون فيها بتفسير كلمات القرآن بالمواضعات الاصطلاحية.

ث- الاختلاف في البدهيات الفقهية التي يفهمها عوام الناس، ومثل له بهجر النساء في المضاجع الذي يعرفه أي عامي يقال له إن فلاناً هجر امرأته في المضجع، ومع ذلك اختلف حوله المفسرون، منهم من صرَّح بما يراد من الكناية، وأخل بما قصد في الكتاب من النزاهة، ومنهم من قال: اهجروهن بسبب المضاجع؛ أي بسبب عصيانهن إياكم فيها، وقال بعض من فسر الهجر بالتقييد بالهجار، اهجروهن؛ أي: قيدوهن لأجل الإكراه على ما تمنعن منه.[2]

والانتقادات التي نجدها في المنار ما هي إلا خطوة منهجية لتصحيح مسار علم تفسير القرآن؛ لتقريبه من واقع الأمة وهمومها ومشكلاتها، والبحث في أسباب تخلفها في سبيل إنقاذها، والنهوض بها إلى مستوى يكون محققاً لمقاصد الخطاب القرآني، ولذا تجد ثورة على كل الصوارف، والشواغل المانعة من تحقيق هذا الهدف سواء تعلق الأمر بالرواية أو الدراية.

رابعاً: مصادر "تفسير المنار" الفكرية

يمكن عد المنار معلمة فكرية، تتضمن بحوثاً متنوعة القيمة، ما بين أدبية ولغوية وعلمية واجتماعية وسياسية وغيرها، أبرزت بوضوح صفة الموسوعية لدى أصحابه، وهذا يعود إلى عمق تكوينهم، وتعدد مصادرهم.

١- في التفسير والاجتهاد الفقهي:

من البدهي أن أذكر في مقدمة مصادر الإمامين عبده ورضا القرآن الكريم والسنة النبوية، فقد تشبعا بالثقافة القرآنية، وارتويا من معين السنة النبوية، حتى

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١٧٢ وج٥، ١١٩ - ١٢٠.

(٢) المرجع السابق، ج٥، ص٧٣.

طغى أسلوب المصدرين على كتاباتهما، وقد سبق التدليل على ذلك سابقاً. فهما لا يقدمان على القطعي من نصوصهما غيره.

كما لكلام علماء الصحابة والتابعين اعتبار في المنار، وحضور متميز في بيان الآيات ذات المعاني المحتملة.

وإلى جانب علماء الصحابة والتابعين نجد كبار علماء الإسلام كأبي جعفر محمد بن جرير الطبري الذي لقي قبولاً كبيراً لدى السيد رشيد، ويقدم اختياراته وترجيحاته،[١] ومن هؤلاء أيضاً الإمام ابن حزم، وابن كثير، وابن تيمية، وابن القيم، وابن حجر، وقد عد هؤلاء بالخصوص من المصلحين.[٢] وللألوسي عنده مكانة خاصة، على الرغم من إيغاله في التأويل الإشاري، وبصورة أخص في قضايا العقيدة، ويصفه فيها بالمحقق.[٣]

فابن تيمية يصفه رشيد رضا بالإمام المحقق وشيخ الإسلام ومجدد القرن السابع، ويسويه في المرتبة من حيث سعة العلم، وقوة الحجة، وطول الباع، وحفظ السنة، والقدرة على الاستنباط بالإمام ابن حزم.[٤]

ولهؤلاء الأعلام رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ حضور، ليس فقط في المنار، بل في أغلب إنتاجات المدرسة الفكرية والعلمية والفلسفية. ولآراء ابن تيمية وتلميذه بالخصوص قبول ورواج عند علمائها، سواء في الاستدلال أو الترجيح، وهو ما يلمسه قارئ المنار في المسائل التي حظيت بنقاش طويل. ولكن هذا لا يعني وقوعهم في أسر التقليد، فكيف والتقليد كفر بنعمة العقل؟[٥] فقد انتقد السيد رشيد على ابن القيم جملة من

---

(١) انظر مثلاً:

- المرجع السابق، ج١١، ص٣٧٥.

(٢) من علماء الحديث والفقه الذين تعد كتبهم أعظم مادة للإصلاح في ما هو بصدده. انظر:

- المرجع السابق، ج٧، ص١٤٥.

(٣) المرجع السابق، ج١١، ص٣٧٨.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٩ وج٧، ص١٤٤.

(٥) المرجع السابق، ج٨، ص٤١٦.

الاجتهادات، كإيصال ثواب قراءة القرآن إلى الميت.[١]

ولا غرابة في ذلك، فشيخ الإسلام مجدد المدرسة السلفية التي حاولت المنار بعث فكرها، وظهر هذا بشكل جلي في كثير من القضايا العقدية التي نوقشت في التفسير كما في مبحث الصفات،[٢] والحروف المقطعة، وغيرها من المسائل التي التزم الإمامان فيها تفويض المتشابهات لعلم الله، معتبرين أفضل ما يستعان به لفهم كتاب الله وسنة رسوله واتباعهما، سيرة السلف الصالح من الصحابة، والتابعين والعلماء الأولين من آل الرسول، وعلماء الأمصار.[٣]

والتوجّه العام للمنار في قضايا العقيدة سلفي، نستنتج هذا من كلام الشيخ رشيد بعد حكاية آراء المعتزلة والأشاعرة "ونحن نقول" كما في مسألة الصلاح والأصلح ونفي الظلم عن الله، وحسم الأمر حين ختم قائلاً: "وأقول أنا مؤلف هذا التفسير: إنني ولله الحمد على طريقة السلف وهديهم عليها أحيا وأموت إن شاء الله تعالى."[٤]

والصواب في نظرالإمامين الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته؛ لأن تكليف الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق.

ولكن في فهم الآيات واستنباط المعاني يؤكد عبده "أننا نسير على كلا الطريقين؛ لأنه لا بد للكلام من فائدة يحمل عليها،".[٥] ويقصد طريقة السلف في التفويض، وطريقة الخلف في التأويل؛ لأنهم متفقون على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من شؤون المخلوقين، وعصمة ملائكته عما لا يليق بهم من الاعتراض أو الإنكار، فلا فرق في هذه النتيجة بين تفويض وتأويل. وفعلاً نجد عنده هذا النزوع

---

(١) المرجع السابق، ج٨، ص٢٥٧ - ٢٥٨.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٧٨.

(٣) انظر "منهج تفسير المنار" في الصفحة (٣٨) وما بعدها من هذا الكتاب.

(٤) المرجع السابق، ج٤، ص٥٦ وج١، ص٢٥٢.

(٥) المرجع السابق، ج١، ص٢٥١ - ٢٥٢ وص٢٥٤.

في كثير من المقاربات، لدرجة جعلته يصور بعض الأخبار على أنها مجرد تمثيل، يؤكد فيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المعاني في صور محسوسة كما في الخطاب بين آدم، والملائكة.[١]

والبعد المقصدي غير خاف في مثل هذه التأويلات، أصاب فيها الأستاذ أم أخطأ، وافق السلف أم خالف. وهو مع سلفيته، متأثر بالأشاعرة، يقول رشيد رضا: "وشيخنا على دعوته إلى مذهب السلف، كان لا يزال متأثراً بمذهب الأشعرية،"[٢] بل استنتج من قوله: "ولكن السلفيين يعدون هذا تأويلاً"[٣] أنه ليس سلفياً. ويمكن الجمع بين هذه الآراء في الإمام أنه يمثل مدرسة خاصة، هي مدرسة التوفيق بين النقل والعقل، بين الأصالة والمعاصرة.

وفي هذا السياق تفهم مناصرته في مبادئ الحرية والإرادة لفكر المعتزلة، فقد ناصر حرية الإرادة التي نادوا بها مناصرة متصلة، بل أضاف إلى حججهم حججاً أخرى عصرية تقوم على البداهة وشهادة الوجدان ومطالب الأخلاق أكثر مما تقوم على المنطق أو الميتافزيقا أو علم الكلام، واحتج على الجبريين، وفند دعاويهم، ودافع عن الحرية، واستشهد لها بوقائع من السيرة النبوية ومواقف الصحابة.

فهو مع هذه المناصرة لم تأسره المقولات الاعتزالية، فقد انتقدهم كثيراً،[٤] وهو الرافض الماقت للتقليد[٥] وأصحابه، فأدلى بنظرية توفق بين علم الله وفعل الإنسان، وتبين أن الإنسان يشعر بكسبه لأفعاله، ولكنه يجب عليه أن يعلم أيضاً أن قدرة الله فوق قوته، وأنها تحيط بجميع أعماله.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٥١ - ٢٥٧.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٩٥.

(٣) المرجع السابق، ج٣، ص٣٦٥.

(٤) انظر مثلاً:

- المرجع السابق، ج٩، ص١٣٠ - ١٣١.

(٥) ولعل شدة بغضه للتقليد هو ما جعله يناصر المعتزلة المطلقين العنان للرأي والعقل.

ومن جهته نجد الشيخ رشيد رضا يعتز هو الآخر، ويحمد الله على أنه على طريقة السلف وهديهم، عليها يحيا وعليها يموت، ويؤكد أنه لا يعرف في كتب السنة أنفع في الجمع بين النقل والعقل من كتب شيخي الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وأن قلبه لم يطمئن إلى طريقة السلف إلا من خلال كتبهم، ويحث قراءه على الاقتداء به في هذا المنهج، وهذا المذهب.[١] ويقدم المغني لابن قدامة على سائر كتب الفقه، وتمنى أن ييسر الله له من يطبعه، فلا يموت حتى يأمن على الفقه الإسلامي أن يموت.[٢]

وسلفيته هي التي جعلته متعاطفاً مع الحركة الوهابية في الحجاز، ومنافحاً عن علمائها المنكرين على أهل البدع خرافاتهم.[٣] إضافة إلى علماء السلف تأثر الشيخ رشيد رضا بشيخيه الأفغاني، وعبده وكان يصفهما بالحكيمين المجددين.[٤]

٢- في فلسفة الأخلاق:

لقد تأثر الإمامان فيما كتباه عن فلسفة الأخلاق بأبي حامد الغزالي، فكلاهما فند مزاعم من ذهبوا إلى أن الأخلاق لا تتغير، وأنها من مقتضى المزاج والطبع، فبذور الخير كما يقول عبده، لا بد أن تنمو وتغلب بذور الشر التي يصاب بها الناشئون من البيئة، إلا إذا اضمحل أنصار الحق، ودعاة الخير وضاعوا في كثرة الأشرار، وقال بأن الله أودع في فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر.[٥] ونقل عنه السيد رشيد نقولاً كثيرة بهذا الصدد.[٦]

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٥٣.

(٢) ابن قدامة المقدسي، **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، مرجع سابق، ج١، ص١٠.

(٣) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٤، ص١٠ - ١١.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص١١.

(٥) مجموعة مؤلفين، **تراث الإنسانية**، مرجع سابق، ج٢، ص٧٧٠ - ٧٧٤. ففيه دراسة تحليلية لرسالة التوحيد.

(٦) كما في تمييزه بين الكبائر والصغائر. انظر: =

٣- في المقاصد وحكمة التشريع:

تأثير الغزالي واضح أيضاً في فلسفة التشريع، وتحرّي الحكم الشرعية المقصودة من الأحكام القرآنية، مما جعل السيد رشيد ينوه به في أكثر من مناسبة، كقوله: "ولله در أبي حامد ما أدق فهمه لحكمة القرآن وتطبيقه على فطرة الإنسان، ومن وقف على ما ثبت عند علماء الإنسان (...)، فإنه يعجب بما أوتي هذا الرجل من قوة الذهن ونفوذ أشعة الفهم."[١]

وإلى جانب الغزالي كان لبقية علماء المقاصد بصمات واضحة في فكر ومنهج الأستاذين عبده ورضا، خصوصاً الشاطبي في موافقاته، سواء في المقاصد ومصطلحاتها، أو القواعد الشرعية العامة ومسائل التعليل، يقول السيد رشيد عن الموافقات"لم يؤلف مثله في أصول الإسلام وحكمته."[٢]

وفكرالشاطبي، من أغزر الروافد التي مدت المنار بإشعاعات مقاصدية تنير الطريق في فهم كلام الشرع، وكذا في كيفية تنزيله على الواقع.

فإلى الموافقات المفزع، وإليها المرجع، لتصوير ما يقتضيه الدين من استجلاب المصالح، وتفصيل طرائق الملاءمة بين حقيقة الدين الخالدة، وصور الحياة المختلفة المتعاقبة، وهو فكر يستمد من ينابيع المقاصد الشرعية.

وكان الأستاذ الإمام أول من نبَّه العلماء والطلاب بالمشرق إلى الشاطبي وإلى أهمية "الموافقات". وإذا كان الفضل في اكتشاف ابن خلدون وريادته في علم

=- رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٥، ص٥١ - ٥٢.

ورأيه في الزهد والتوكل. انظر:

- المرجع السابق، ج٤، ص٢١٠.

وكلامه في الخواطر والإلهام والوسواس. انظر:

- المرجع السابق، ج١، ص٢٦٨.

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٥٥ - ٥٦.

(٢) المرجع السابق، ج٦، ص١٥٧.

الاجتماع يعود إلى المستشرقين، فالفضل يعود إلى محمد عبده، وبعده السيد رشيد رضا، في اكتشاف الشاطبي وريادته في المقاصد؛ لأن كلا من الرجلين، ابن خلدون والشاطبي، ظل مهملاً لقرون حتى قيَّض الله لهما من ينفض عنهما غبار النسيان.

وهو ما أكد عليه الشيخ الخضري؛ إذ قال فيما يحكيه عن صلته بالأستاذ الإمام: "لكنه أشار علي أن أطالع كتاب الموافقات للشاطبي، وأمزج ما أحكي بشيء منه، ليكون ذلك لفتاً لطلاب هذا العلم إلى معرفة أسرار التشريع الإسلامي، فاستحضرت هذا الكتاب، وأخذت أطالعه مرات حتى تثبت في نفسي طريقة الرجل."[1]

وقد وجد رواد التجديد في الفكر الإسلامي عموما، وأصحاب المنار خصوصا، في ما قرره الشاطبي ما يلائمون به بين الشريعة الإسلامية وما استجد من الحياة العصرية، وهو ما يبرزه بوضوح منهج عبده ورضا: فكتاب الاعتصام مثلاً مصدر استلهام الفكر السلفي، وكتاب الموافقات مصدر منهجهما في حل المشكلات التي تواجههما.[2]

فالشاطبي يعد بحق دعامة كبرى من دعائم الصحوة الإسلامية منذ بزوغ المنار وإلى وقتنا الحاضر، فهو الذي يحركها، بحسب تعبير عبد المجيد التركي،[3] في اتجاهيها اللذين تأخذ بهما: الاتجاه السلفي بالنسبة للحياة العامة، واتجاه التعليل بالمقاصد الذي أصبح يسود الدراسات الشرعية.

---

(١) الخضري، محمد. **أصول الفقه**، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ط٦، (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م)، ص١٣.

(٢) يقول محمد الفاضل ابن عاشور عن الاعتصام: "هو ثمرة كفاح الشاطبي في تقويم الدين وقمع البدع، فقد كان أيضاً باعثاً من أقوى بواعث النهضة الإسلامية الحاضرة، استندت إليه الحركة السلفية في المشرق والمغرب منذ أخرجه للناس المرحوم السيد محمد رشيد رضا. انظر:

- ابن عاشور، محمد الطاهر. **أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي**، تونس: مكتبة النجاح، ط١، (د. ت.)، ص٧٦.

(٣) التركي، عبد المجيد. **مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٦م، ص٥١١.

٤- في اللغة وعلومها:

في القضايا اللغوية جل مصاقع البيان، وفطاحل البلاغة، وأساطين اللغة والشعر، كان لهم حضور في الشواهد اللغوية، والبلاغية، والشعرية في المنار، كالفراء، وقطرب، والمبرد، والزمخشري...

وأثر هذا الأخير باد في تتبع النكت البلاغية والتعبيرية في القرآن الكريم، كما سنراه في موضعه.[١]

وللإمامين، عبده ورشيد، باع طويلة في مثل هذه المباحث، وذوق خاص لا يباريان فيه، ويكفي في التدليل على هذا الأسلوب الرصين واللغة المتينة التي تتعانق فيها إشراقة الأديب وحجة العالم في المقالات والدراسات، والتآليف التي صدرت عنهما، وفي شتى فنون المعرفة.

ودليل إعجاب الشيخ رشيد، على وجه الخصوص، بمن ذكرت: -نشره في مجلة المنار لفقرات وفصول من كتبهم، كمدارج السالكين لابن القيم، والاعتصام للشاطبي، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، والتوسل والوسيلة لابن تيمية، وكتاب التوحيد، وكشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب، كما تولى طبعها بمطبعة المنار.

هذا دون أن أنسى ابن خلدون ومقالاته في الاجتماع والعمران البشري،[٢] وبعض فلاسفة الغرب، فالحكمة ضالته أنى وجدها التقطها واحتفى بها، وأنصف مصدرها مهما كان.

---

(١) في المصطلحات المقاصدية في الفصل الأخير من هذا الباب، "مصطلح: النكت".

(٢) انظر مثلاً:

- رضا، **مجلة المنار**، مرجع سابق، ج١٢، ص٢٤٢.

خامساً: مآخذ على "تفسير المنار"

كما انتقد صاحب المنار على المفسرين انتقد عليه غيره بدوره كثيراً من الآراء والاختيارات، من هذه المآخذ:

١- مجاراة الأستاذ الإمام وقبوله ببعض النظريات في أصل الكون والحياة الطبيعية، ولم يسلم بالتفسير الوحيد لكلمة "نفس" في أول سورة النساء، حيث لم يستبعد أن يكون لكل صنف بشري أب.[١]

٢- أنه يرى أن في القرآن محلاً لنظرية تنازع البقاء، والبقاء للأصلح، ويعدّهما من سنن الله في الكون وفي تاريخ الإنسان، ووصف المعترضين عليه، بأن هذا القول من أثارة الماديين في عصره، بالمتطفلين على علم السنن في الاجتماع البشري،[٢] ولا يختلف عن أستاذه الأفغاني في تفسيره نظرية داروين المادية في مذهب النشوء والارتقاء؛[٣] إذ يرى الأفغاني أن العرب سبقوا وتحدثوا فيه، واستشهد بقول أبي بكر بن بشرون في رسالته لأبي السمح: إن التراب يستحيل نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً، وإن أرفع المواليد هو الإنسان (الحيوان) وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها، وإن أرفع مواليد التراب (ومنه المعادن) النبات -وهي أدنى طبقات الحيوان- سلسلة تنتهي عند الإنسان. واستشهد بقول المعري:

والــذي حــارت البريــة فيــه حيــوان مــستحدث مــن جمــاد

٣- ذهاب رشيد رضا في بعض اجتهاداته إلى آراء، ربما هي ضد مقاصد الشريعة، من ذلك إباحته تناول الحيوان إذا قتل بالصعق الكهربائي، فبعد تأمله، كما صرح به، في مجموع ما ورد في التذكية، فقه أن غرض الشارع منها اتقاء تعذيب الحيوان بقدر الاستطاعة، فأجاز ما أنهر الدم، وسمح لنفسه بادعاء أن النبي ﷺ لو

---

(١) المرجع السابق، ج١٢، ص٤٨٣.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٨٣.

(٣) الأفغاني، جمال الدين. **الرد على الدهريين**، ترجمة: محمد عبده، القاهرة: دار الهلال، ١٩٧٣م، ص١٢٦.

اطلع على طريقة للتذكية أسهل على الحيوان ولا ضرر فيها، كالتذكية بالكهرباء، فإنه سيفضلها على الذبح؛ لأن قاعدة الشريعة أنه لا يحرم على الناس إلا ما فيه ضرر لأنفسهم أو غيرهم من الأحياء[1] فهذا الاجتهاد، وإن كان يبدو مقاصدياً، غير أنه في الحقيقة مناقض لحكمة التشريع من التذكية؛ لأن الشرع الحكيم رسم طريقاً للذبح الشرعي بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣] وبقوله ﷺ: "ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل."[2] فمقصود الشرع على ضوئهما إنهار الدم لحلية الأكل، وليس مجرد إزهاق الروح، ولا مجرد تجنب تعذيب الحيوان، بل لا بد من فصل الدم النجس الخبيث المحرم عن اللحم الطيب الطاهر، ولا يتحقق هذا بالصعق الذي ليس من التذكية في شيء، لفظاً، ولا معنىً، ولا مقصداً شرعياً، فلو كان القصد إزهاق الروح فقط لما حرمت الميتة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة. ومما هو مؤكد عند علماء الأصول أنه لا يجوز اقتناص معنى يؤدي إلى إلغاء النص، ويعود عليه بالإبطال.

٤- الزعم بأن الإيمان إيمانان؛ إيمان لا يعدو التسليم الإجمالي بالدين، وإيمان عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان، متمكنة في العقل بالبرهان، مؤثرة في النفس بمقتضى الإذعان، وبهذا التمييز أول الخلود في النار في حق العائد إلى أكل الربا؛ لأن هذه العودة بعد التحريم، تعني عدم الاتعاظ بموعظة ربهم الذي لا ينهاهم إلا عما يضر بهم، في أفرادهم أو جميعهم، وفسر الخلود بقوله: "هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه، فيكونون خالدين فيها."[3] وهنا خالف رجال المدرسة العقلية عموماً، ومنهم رشيد رضا، موقف السلف من مرتكب الكبيرة، وهو أنه غير مخلد في النار، ولهم في بيان مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥]

---

(١) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٦، ص١٤٤.

(٢) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دمشق وبيروت: دار ابن كثير واليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ج٢، ص١١١٩، حديث رقم: (٢٩١٠).

(٣) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٣، ص٩٨.

قولان: الأول هو آكل الربا، وفسروا الخلود بطول المكث. والثاني هو من قال: إنما البيع مثل الربا مستحلاً ما حرم الله.[١]

٥- تأويل عبده للجن بأنهم الميكروبات الخفية التي تؤثر في صحة الناس، ووافقه السيد رشيد أيضاً.[٢]

٦- إنكار أحاديث خروج المهدي، ونزول عيسىٰ ونحو ذلك، وممن انتقده الشيخ الألباني الذي شبَّه هذه الطريقة في التأويل بطريقة الباطنية والمعتزلة،[٣] ووصف الشيخ بأنه مصاب بنوع من الاستعجال بإنكار أحاديث صحيحة عند عامة المحدثين، سلفاً وخلفاً، وإن كان الباعث له علىٰ ذلك حسناً.[٤]

٧- عدم التحرر الفعلي من خصوصيات التراث السلفي، علىٰ الرغم من أن المنار بشر ببعض الآفاق التجديدية، فهو لم يراجع المنهجية التراثية السلفية فيما يتعلق بطبيعة النص القرآني، والخصوصيات المعرفية والثقافية التي ينبغي أن تتركز عليها القراءة الحديثة.[٥]

---

(١) الرومي، فهد. **منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٧هـ، ص٦٥٥.

(٢) كما وافقه في موضوع: السحر والشياطين، وقصة آدم، ولكن يمكن حمل كلامهما علىٰ التمثيل والتقريب. انظر:

- رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٣، ص٩٨.

(٣) الشيباني، محمد إبراهيم جاسم. **حياة الألباني** وآثاره وثناء العلماء عليه، الكويت: الدار السلفية، ١٩٨٧م، ج١، ص٤٦.

(٤) يقصد بالباعث بما اعتذر له بأنه أراد أن يرد انحرافات وتأويلات القاديانبية في ادعائهم مهدية ميرزا غلام أحمد القادياني، وذلك بإنكار أو تشكيك في بعض الأحاديث التي يتعلق بها. انظر:

- آل حمزة، محمد رشيد رضا: طود وإصلاح، دعوة وداعية، جهاده في خدمة العقيدة وأثره في الاتجاهات الفكرية المعاصرة، مرجع سابق، ص٣٣٧.

(٥) النيفر، أحميدة. "التفاسير القرآنية المعاصرة: قراءة في المنهج"، **مجلة المنارة**، الأردن، العدد (٣)، ١٩٩٩م، مج٤، ص٩٢.

٨- عدم اهتمام رضا بوضع منهج في التفسير الذي كتبه، وكان همّه أن يخلع على القديم صبغة عقل جديد، وهي الملاحظة ذاتها التي لاحظها مالك بن نبي، وإن اعترف للشيخ رشيد بأنه قد خلق في الصفوة المسلمة التي تعشق التجديد الأدبي اهتماماً بالنقاش الديني.[١]

ومن الانتقادات الموجهة للمدرسة عموماً:

١- افتقاد أصحابها، في مجالات الإصلاح لعنصر المبادرة إلى تصور حقيقي لبعض مشكلات الأمة، وأن إشاراتهم تخلفت أحياناً عن مستوى الأحداث، وبقيت تابعاً يكتفي بالتسويغ لحركة الإصلاح القائمة، دون أن يكون لها دور الريادة والتوجيه.[٢]

٢- منها إعجابهم ببعض الأعمال التي تنكر المعجزات، أو تروج لأفكار إلحادية، فقدموا لها أو قرظوها، فالسيد رشيد قرظ كتاب "حياة محمد" لمحمد حسين هيكل الذي أنكر فيه معجزات النبي ﷺ، وأشاد به في المجلة.[٣]

٣- منها نشر السيد مقالات تشكك في حجية السنة كمقالة توفيق صدقي "الإسلام هو القرآن وحده" (نشرها في العددين٧ و٨)، ونشر في حلقات كتاب "تحرير المرأة" الذي كتبه عبده، وذيله باسم قاسم أمين (ذهب بعض الدارسين إلى أن الأستاذ الإمام هو من ألف هذا الكتاب). بل ذهب آخرون إلى أن ما خرج به بعض من ينتسبون إلى العلم على الناس، من أفكار فيها تشكيك في بعض الثوابت، لا يبعد أن تكون له صلة ما بفكر المدرسة.

---

(١) ابن نبي، مالك. **الظاهرة القرآنية**. دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢م، ص٩٢.

(٢) الشرقاوي، عفت محمد. **الفكر الديني في مواجهة العصر؛ دراسة تحليلية لاتجاهات التفسير في العصر الحديث**، بيروت: دار بيروت للطباعة، ١٩٧٩م، ص٤٥١. وانظر أيضاً:

- الشرقاوي، عفت محمد. **قضايا إنسانية في أعمال المفسرين**، بيروت: دارالنهضة العربية، ١٩٨٠م، ص٨٧.

(٣) وقدم للكتاب الشيخ محمد مصطفى المراغي. انظر:

- رضا، مجلة المنار، مرجع سابق، مج٣٤، ج١٠، ص٧٩٣.

هذه، إذن، نماذج من الانتقادات على المنار، لا أقصد بها محاكمته فيما تضمنته، بقدر ما قصدت بها تقديم صورة متكاملة عن فكره، بما له، وما عليه، حتى نفهم سياق التوجه المقصدي له، ونقيل لأصحابه عثراتهم، كما فعل الشهيد سيد قطب،[1] والكمال المطلق لله رب العالمين.

ومع هذه المآخذ يبقى المنار مناراً يضيء مختلف جوانب حياة المسلم، وما ترك مشكلاً من مشكلات الأمة إلا ووضعه تحت مجهر القرآن، شخّص الداء ووصف الدواء، وجعل المسلم على بصيرة مما يحدق بالأمة من أخطار. فيكفيه جدة هذه النظرية المقاصدية التي حاول هذا البحث أن يقدم معالمها، وينظم خيوطها.

سادساً: تأثير "تفسير المنار" فيمن جاء بعده

لقد تأثر كثير من العلماء والمفكرين والجمعيات في العالم الإسلامي بأصحاب المنار، في السياسة والاجتماع، والتربية والإصلاح، والدعوة والإرشاد، وغيرها من الأنشطة. وفيما يأتي نماذج من هؤلاء:

١- بديع الزمان النورسي (١٨٧٣-١٩٦٠م):

عُدَّ الأفغاني وعبده من أسلافه الذين يسير على نهجهم في الدعوة إلى الاتحاد الإسلامي، وكان السلطان سليم قد دعا إلى الاتحاد، وبايعه النورسي مقتدياً بسلفه الشرقيين الأفغاني وعبده.[2]

وقد عاش النورسي تجربة شبيهة بتجربة عبده؛ إذ بدأ كل منهما نشاطه ثائراً سياسيا، وختمه مصلحاً تربوياً، وهذا التحول أملاه النهج الإصلاحي المقاصدي

---

(١) فبعد نقد منهجهم العقلي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ [الفيل: ٤]، قال: إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التي كان الأستاذ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ على رأسها في تلك الحقبة... فالتمس لهم المعاذير. انظر:

- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، (د. ت.)، ج٣٠، ص٢٥٤ - ٢٥٥.

(٢) النورسي، بديع الزمان سعيد. **صيقل الإسلام**، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، ٢٠٠٢م، ص٤٤٦.

الذي سلكه كل منهما، حفاظاً على الإسلام ومكتسباته، وتجمعهما قواسم مشتركة كثيرة، كالمشاركة في الجهاد ضد الإنجليز، والإسهام في تنوير الأذهان وإنقاذ الإيمان، والاعتماد على القرآن في مواجهة الحضارة الغربية.[١]

٢- جماعة "الإخوان المسلمون":

كان رضا يثني عليها في مجالسه الخاصة، ويهدي إليها مؤلفاته، كما ذكر ذلك مؤسسها،[٢] فعلى نهجه سارت في الربط بين الأصالة والمعاصرة:

أ- حسن البنا:

يرجع تأثر جماعة الإخوان بفكر المدرسة إلى تأثر مؤسس الجماعة الشيخ حسن البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدعوة المنار، فقد عد دعوته امتداداً أو تطبيقاً لما نادى به الشيخ رشيد، وظل على اتصال بالشيخ رشيد ويستشيره في كثير من الأمور.[٣] وسعى من جهته إلى فتح قنوات الحوار مع الشيعة، للم شمل الأمة وتوحيد جهودها لمقاومة الأعداء، ونادى بضرورة العودة إلى تعاليم الإسلام في مجالات الإصلاح.

وتولى الإشراف على مجلة المناربعد وفاة الشيخ رشيد، باعثاً لها من جديد[٤] ولم يختلف أسلوبه ولا الموضوعات والهموم التي ينشرها على صفحاتها.

وتأثره بمنهج المنار يتجلى في الإلحاح على التركيز في قصص القرآن على موطن الهداية والعظة والعبرة، والتأكيد على أن القرآن لم ينزل، ليكون كتاب هيئة أو طب

---

(١) كتب زياد الدغامين بحثاً أبرز فيه مدى اعتمادهما على القرآن في هذه المواجهة. انظر:

- الدغامين، زياد خليل محمد. " القرآن في مواجهة الحضارة الغربية"، **مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية**، الكويت، جامعة الكويت، العدد (٣٣)، السنة ١٢، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ص١٧ - ٨٢.

(٢) الشهيد حسن البنا. انظر:

- رضا، **مجلة المنار**، مرجع سابق، مج٣٥، ج٥، ص١ - ٧.

(٣) محمود، عبد الحليم. **الأخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ؛ رؤية من الداخل**، الإسكندرية: دار الدعوة، ١٩٧٨م، ج١، ص٢٤٦.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٢٥٤.

أو فلك أو زراعة أو صناعة، بل كتاب هداية وإرشاد وتوجيه اجتماعي إلى أمّات المناهج الاجتماعية. وكذا في استهداف المقاصد الكبرى للقرآن الكريم، وله كتاب بهذا العنوان "مقاصد القرآن الكريم" على غرار صاحب المنار.[١]

ب- سيد قطب:

سار هو الآخر على منهج المنار في العناية بأغراض السورة، وإبراز الوحدة الموضوعيّة لها، والأغراض المحورية التي تدور حولها. فهو من أوائل المتحمسين والمدافعين عن الوحدة الموضوعية للسور القرآنية،[٢] وطبقها في تفسيره "في ظلال القرآن". ويرى أن مجال الحكم والمقاصد مما يفتح الله به على المفسر.[٣]

٣- "أنصار السنة المحمدية":

هم تلاميذ الشيخ رشيد، ممن أعجب كثيرمنهم بكتاباته وأفكاره، ولا سيّما الفكر المقاصدي. منهم: محمد حامد الفقي، رئيس الجماعة الذي يفتخر بانتسابه لرشيد رضا، وأحمد محمد شاكر، ومحمد عبد الرزاق حمزة وغيرهم.[٤]

٤- محمد مصطفى المراغي (١٨٨١-١٩٤٥م):

يُعدُّ من دعاة التجديد والإصلاح، المتأثرين بالشيخين عبده ورضا، فهو من تلاميذ الإمام محمد عبده المعجبين بمنهجه في تفسيره، وبدروسه.[٥] ونظراً لتأثره

---

(١) البنا، حسن. **مقدمة في التفسير مع تفسير الفاتحة وأوائل سورة البقرة**، تونس: دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، ص٦٥ - ٦٦ وص٩٣ - ٩٦.

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص ٢٨.

(٣) المرجع السابق، ج٢، ص٦٦٩.

(٤) بلغ هذا التأثير ببعضهم درجة موافقة رضا في أمور خالف فيها جمهور العلماء، كإنكار المهدي المنتظر، وإنكار مس الجن للبشر. انظر:

- آل حمزة، محمد رشيد رضا: **طود وإصلاح، دعوة وداعية، جهاده في خدمة العقيدة وأثره في الاتجاهات الفكرية المعاصرة**، مرجع سابق، ص٢٦ وص٣٣١.

(٥) أمين، **محمد عبده**، مرجع سابق، ص١٢٢.

obeikandi.com

الكبير بالشيخين عده كثيرون من أعلام المدرسة؛ إذ نسج على المنوال نفسه، وكان يدور في اتجاه عبده التفسيري، ويستهدف الأهداف ذاتها،[١] سواء في تفسيره أو كتبه الأخرى.[٢]

ومن أبرز مظاهر تأثره بالمنار، العناية بحكمة التشريع الإسلامي، وإظهار أسراره،[٣] رغبة منه في إظهار محاسن الإسلام.[٤]

٥- جمال الدين القاسمي (١٨٦٦-١٩١٣م):

هو وإن كان معاصر الإمامين عبده ورضا، فإن لهما أثراً في اهتماماته الإصلاحية سواء في السياسة أو القضاء أو غيرهما من المجالات التي عالجها بالفكر نفسه والمنهج تقريباً،[٥] ويهتم مثلهما بمقاصد القرآن وحكم الأحكام، وصرح أن هذا من بين مقاصده في التفسير قائلاً: "واستخرت الله في تقرير قواعده، وتفسير مقاصده في كتاب اسمه بعون الله الجليل: محاسن التأويل."[٦]

---

(١) ولم يتم هو الآخر تفسير القرآن، بل اكتفى ببعض السور كالحجرات، والحديد، ولقمان، والعصر، وآيات من سورة الفرقان.

(٢) مثل: الأولياء والمحجورين، وبحوث في التشريع الإسلامي، والدروس الدينية وغيرها.

(٣) وله مؤلف بعنوان: "بحوث في التشريع الإسلامي" فصل فيه ما أوجزه في التفسير.

(٤) ينظر على سبيل المثال تفسيره لآية الصيام من سورة البقرة.

(٥) من كتبه: "أوامر مهمة في إصلاح القضاء الشرعي على مذهب الشافعية"، و"تاريخ الجهمية والمعتزلة"، و"تبيين الطالب إلى معرفة الفرض والواجب في أصول الفقه"، و"دلائل التوحيد"، و"مجموعة خطب". انظر:

- المراغي، عبد الله مصطفى. **الفتح المبين في طبقات الأصوليين**، القاهرة: دار أنصار السنة، ١٩٤٧م، ج٣، ١٦٨.

- شعبان، محمد إسماعيل. **أصول الفقه: تاريخه ورجاله**، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٨م، ص٦٠٦.

(٦) القاسمي، محمد جمال الدين. **محاسن التأويل**، بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٩٧٨م، ج١، ص٣، وقارن كلامه في حكم الصيام بكلام المراغي ورضا تجد النفس ذاته في استعراضها وتحليلها. انظر:

- المرجع السابق، ج٣، ص٧٤.

وهو في مؤلفاته مجدد، وداعية إصلاح في الدين،[1] كثير النقل عن المنار، ومتبع لمنهجه، ومفيض في أغلب ما أفاض فيه، وأكثر من هذا فإنه ضمَّن مقدمة تفسيره كل مقدمة المنار تقريباً لخطورتها وأهميتها.

٦- محمد الطاهر ابن عاشور (١٨٧٩-١٩٧٣م):

اطّلع على ما أنتجته المدرسة المصرية الممثلة بعبده ورشيد رضا.[2] وقد ثبت التقاؤه، هو ومجموعة من أعلام الإصلاح بتونس،[3] بمحمد عبده حين زارها سنتي ١٨٨٤و١٩٠٣. وعده سفير الدعوة الإصلاحية في جامع الزيتونة، وقد تلقى دعوته إلى الاهتمام بمقاصد الشريعة كما قدمها الشاطبي في موافقاته، وهو من رواد الفكر المقاصدي في القرن العشرين، ففي مؤلفيه القيمين "مقاصد الشريعة" و"التحرير والتنوير" أسس لمفاهيم ومفردات عدّها المحور الذي عليه تدور عقائد الإسلام وتعاليمه وتشريعاته، وهي الفطرة والسماحة والحرية والحق.[4]

فمن المقدمة الرابعة يظهر للقارئ أثر المنار على فكره ومنهجه في بيان مقاصد القرآن في مجالات الإصلاح المختلفة.[5] وبين أن "غرض المفسر بيان ما يصل إليه أو يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى، ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلاً وتفريعاً ..."[6]

---

(١) الزركلي، خير الدين. **الأعلام**، بيروت: دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠، ج٢، ص١٣٥.

(٢) صالح، **التفسير والمفسرون في العصر الحديث**، مرجع سابق، ص١٠٩.

(٣) أمثال علي بوشوشة، ومحمد بن الخوجة، ومحمد النخلي القيرواني. انظر:

- المجلس الإسلامي الأعلى. **مجلة الهداية**، تونس: المجلس الإسلامي الأعلى للجمهورية، العدد (١٦٠)، السنة ٢٩.

(٤) ابن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٥٧ - ٥٩.

(٥) حصر هذه المقاصد في ثمانية، انظر:

- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، (د. ت.)، ج٢، ص٦٠ وج٣، ص٣٣ و٢٧٢ وج٥، ص٤٧٢ وج٧، ص٧٥ على سبيل المثال.

(٦) المرجع السابق، ج١، ص٥.

ومن جهة أخرىٰ تأثر ابن عاشور بالمنار في الوحدة الموضوعية للآيات، فيقسم السورة إلىٰ أقسام كبرىٰ[1] قبل أن يفصل فيها، ويراعي المناسبة بين الآيات والسور.

٧- محمود شلتوت (توفي: ١٩٦٣م):

وهو ممن أوفوا بعهد المنار وأخلصوا لخطها الفكري، فهو علىٰ طريقته في إصلاح العقائد الدينية والمجتمع الإنساني بالقرآن، ومتأثر بأفكار الأستاذ الإمام، ومقتد بمنهجه.[2] وما فتئ يربط الناس في دروسه وكتبه بمقاصد القرآن التي من أجلها أنزل، فهو كتاب تبشير وهداية وتعليم، ويتمتع رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقدرة فائقة علىٰ فهم أسرار الدين، فكان يجمل مقاصد القرآن، ثم يفصل فيها، وهي عنده تدور حول نواح ثلاث: ناحية العقيدة، وناحية الأخلاق، وناحية الأحكام.[3]

٨- عبد الله دراز (توفي: ١٩٣٢م)، وابنه محمد عبد الله دراز (١٨٨٤- ١٩٥٨م):

يعد عبد الله دراز من تلاميذ الإمام محمد عبده، أخذ عنه التفسير، وتأثر بالمنهج المقاصدي للمدرسة عموماً، ومن درس تحقيقاته وتعليقاته علىٰ "الموافقات" للإمام الشاطبي يلمس هذه النزعة، ومن أبرز دوافعه إلىٰ تحقيق هذا الكتاب العظيم، هو لفت شيوخ المنار لأنظار الباحثين إلىٰ ما تتضمنه كتب الشاطبي من فكر إسلامي نير، ومنهج مقاصدي متين، يستجيب لحاجات الصحوة الإسلامية، قال في مقدمة تحقيقه للموافقات: "إنَّ الكتاب طبع أول ما طبع بمصر حين نبّه الشيخ محمد عبده طلاب الأزهر وعلماءه إلىٰ هذا الكتاب، ومنذ ذلك اليوم عرف بمختلف أنحاء البلاد الإسلامية، وتوالت طبعاته."[4] فقد وضع له مقدمة وشرحاً

---

(١) انظر ما قاله عن البقرة مثلاً في:

- المرجع السابق، ج١، ص٢٠٣ - ٢٠٥.

(٢) العقاد، عباس محمود. "الموفَّق الموفَّق؛ الإمام المصلح محمود شلتوت"، **مجلة الأزهر**، (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م)، السنة ٣٥، ج٦، ص٦٤٧.

(٣) شلتوت، محمود. **من هدي القرآن**، القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨م، ص٥٠ - ٥٢.

(٤) وإن كان لا يوافقه هيثم خليفة طعيمي الذي أرجع الفضل للتونسيين في التعريف به، حيث كان متداولاً =

وأخرجه للناس.

ومما جاء في مقدمته أيضاً: "كثيراً ما سمعنا وصية المرحوم الشيخ محمد عبده لطلاب العلم يتناول الكتاب، وكنت إذ ذاك من الحريصين على تنفيذ هذه الوصية."[١]

ونهج الشيخ محمد عبد الله دراز، كوالده، نهج الإمام عبده، خصوصاً في الاهتمام بمقاصد القرآن، وهي كما بينها، مقصدان نظريان: هما معرفة الحق، ومعرفة الخير، ومقصدان عمليان تثمرهما هاتان المعرفتان؛ فثمرة معرفة الحق هي تقديسه؛ وثمرة معرفة الخير التزامه ...

كما بدا هذا التأثر في التزام الوحدة الموضوعية، أو التفسير الموضوعي، وطبق هذا المنهج على سور: البقرة، ويونس، وهود، في المقرر الدراسي حين كان يدرّس بالأزهر.[٢] ومراعاة الوحدة الموضوعية أملت عليه تناول السورة في مقاصد محددة، فقد ذكر للبقرة أربعة مقاصد، بدا فيها متأثراً بالمنار كثيراً.[٣]

٩- علي حسب الله (١٨٩٥-١٩٧٨م):

تأثير فكر مدرسة المنار بارز في فكره وأسلوبه ومنهجه، سواء في "أصول التشريع الإسلامي"، أو كتبه الأخرى،[٤] فهو يهتم بالتعليل، والتقصيد للأحكام، ويكثر من ذكر الحكم.

= بالزيتونة وطبع بتونس منذ ١٨٨٤م بتصحيح ثلاثة علماء زيتونيين. إلا أنه مع ذلك تبقى شهرة الموافقات محوزة بفضل المنار، ثم بتحقيق المرحوم دراز، وهو أحسن تحقيق لها حتى الآن. انظر:

- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي. **الاعتصام**، تحقيق: هيثم خليفة طعيمي ومحمد الفاضلي، بيروت: المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠١م، المقدمة.

(١) المرجع السابق، ص٥.

(٢) دراز، محمد عبد الله. **مدخل إلى القرآن الكريم؛ عرض تاريخي وتحليل مقارن**، القاهرة: طبعة المنار، (د. ت.)، ص١١٨- ١١٩.

(٣) دراز، محمد عبد الله. **النبأ العظيم**، القاهرة: طبعة المنار، (د. ت.)، ص١٥٨.

(٤) مثل: "الفرقة بين الزوجين" و"الرسول ﷺ يعلم الناس مناسكهم في حجة الوداع".

وممن تأثروا بالشاطبي عن طريق مدرسة المنار، وخصصوا مباحث للمقاصد في كتبهم الأستاذ أبو زهرة، والشيخ الخضري بك الذي صرح بأن محمد عبده هو الذي نبهه إلى أهمية تدارس الطلاب المقاصد، إلى جانب الأصول، حتى ينتبهوا إلى أسرار الشريعة، وذلك بالاعتماد على الموافقات.[١]

١٠- يوسف القرضاوي:

فهو كثيرالاعتزاز بالانتماء لتيار الفكر الوسطي، ويدعو إليه بوصفه المعبر الحقيقي عن الإسلام.[٢] وهذا التيار هو امتداد لمدرسة رشيد رضا، ومن تتبع معه المبادئ التي يقوم عليها فكر هذا التيار، وإن لم يسمه، يعتقد أنه يلخص فكر ومنهج المنار.[٣] ويحرص في مؤلفاته على إبراز خصائص الشريعة الإسلامية، ومقاصدها، وقواعدها الكلية.[٤]

والمقام لا يسع لجرد كل الأسماء التي لمعت في سماء المنار في مصر، وحملت فكرها إلى الآفاق، ونشرت تراثها ودرسته، فقد ركزت أكثر على الذين خدموا فكرة المقاصد في أعمالهم المختلفة، وإلا فتلاميذها، ومريدوها كثر.[٥]

---

(١) الخضري، **أصول الفقه**، مرجع سابق، ص١٣.

(٢) انظر ذلك عند:

- القرضاوي، يوسف. **فقه الأولويات**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط٤، (١٤٠١هـ/ ٢٠٠٠م)، ص١٩١.

(٣) وهي مبادئ مستوحاة من مضامين ومحاور "تفسير المنار" التي سترد عندنا في هذا الكتاب، كل في مقامه ومناسبته بإذن الله. انظر:

- القرضاوي، **فقه الأولويات**، مرجع سابق، ص١٩٠ - ١٩١.

(٤) القرضاوي، يوسف. **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، القاهرة: دار الشروق، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٧١ - ١٢٣.

(٥) منهم في مصر: عبد العزيز جاويش، ومحمد البهي، ومحمد محمد المدني، وأمين الخولي، وعائشة بنت الشاطئ. وفي سوريا: شكيب أرسلان، وعبد الحميد الزهراوي، وعبد القادر المغربي. ومحمد زاهد الكوثري، وعبد القادر الترمانيني. وفي تركيا: محمد شرف الدين، مدير المعهد الإسلامي بكلية الآداب جامعة استانبول، ومحمد عاكف. وفي إفريقيا الشمالية: عبد الحميد بن باديس ومحمد بن الخوجة، وعبد الحليم بن سماية، وعلال الفاسي، وأبو شعيب الدكالي... وامتد هذا التأثير إلى الهند وأندونيسيا.

وهكذا يبدو لنا من هذه الأمثلة إلى أيِّ حدٍّ أثرت مدرسة المنار، التي حمل لواءها الشيخ رشيد، على مختلف المدارس الفكرية في هذا العصر، وعلى مناهج الدراسات الإسلامية في المعاهد والكليات، وأحدثت أقساماً وتخصصات، ومواد، ووحدات بحث تعنى بالمقاصد تحقيقاً، وتأصيلاً، وتنظيراً، ودراسةً، وتفعيلاً.

obeikandl.com